اَراء ابن القيم وأفكاره التربوية في ضوء نظريات الفكر التربوي الحديث– جون ديوي نموذجًا" رؤية نقدية مقارنة

إعداد

الدكتور داود عبد القادر إيليغا
الأستاذ المشارك بكلية التربية
جامعة المدينة العالمية

الدكتور أيمن عايد محمد ممدوح
الأستاذ المشارك بكلية اللغات
جامعة المدينة العالمية

ملخص البحث:

يسعى هذا البحث إلى الوقوف على مدى الاتفاق بين الآراء والأفكار التربوية لابن القيم، واختلافها مع نظريات الفكر التربوي الحديث – جون ديوي نموذجًا. وقد استخدم الباحثان في دراستهما المنهج المقارن؛ وذلك لمناسبته لمعالجة إشكالية البحث. ولتحقيق هدف البحث قام الباحثان بدراسة عدد من المحاور البحثية؛ تمثّلت في الوقوف على أهمّ الملامح الرئيسة لشخصية كلّ من ابن القيم وجون ديوي، من حيث حياتهما، وأعمالهما، والعوامل الّتي أثّرت في أفكارهما الفلسفية العامة، والكشف عن أهم الآراء والأفكار التربوية لكل منهما وتحديد أثرها في تربية العصور التي عاشا فيها، ثمّ عقد الباحثان مقارنة بين كل من الآراء والأفكار التربوية لكل منهما، ومن ذلك قدم الباحثان أوجه الإفادة من تلك الآراء والأفكار التربوية لكل منهما وذلك في معالجة مشكلات الواقع التربوي المعاصر.

الكلمات المفتاحية: ابن القيم- نظريات الفكر التربوي الحديث – جون ديو

مقدّمة:

الحمد لله، والصّلاة والسّلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه وسلّم.

ثم أما بعد:

يتصف عصرنا الحالي بالعديد من المتغيرات والمستجدات العلمية والتكنولوجية، التي كان لها الأثر الكبير في إحداث نقلة نوعية غيرت وبدلت العديد من مناحي الحياة وعلى كافة المستويات الثقافية والسياسية والاقتصادية والتربوية وفرضت ضرورة إعادة النظر في العديد من الثوابت والمفاهيم التي أُستُقر عليها لفترات زمنية طويلة . وكان من بين هذه المجالات التي تأثرت بهذه التغيرات مجال التربية والتعليم بما يفرض على المخططين وواضعي السياسات التعليمية ضرورة مواكبة هذه التغيرات بما يحقق للتربية صفة الاستمرارية ومواكبة العصر الذي تحيا فيه.

كما أنه لا يخفى على أحد أن النُظم التربوية القوية والفاعلة الدور الأكبر وعظيم الأثر في النهوض بمجتمعاتها وتلبية حاجات ومتغيرات العصر، كما يتم من خلالها " الحفاظ على الجيّد من التّراث الثقافي، وتجديده مع التّطوير؛ لأن المجتمع متصل اتصالًا مباشرًا بماضيه، كما تعين التربية الفرد والمجتمع على الاستفادة من التقدم العلمي والتّكنولوجي".[1]

ومن خلال التربية تتم عملية التشكيل الأيديولوجي للأفراد والمجتمعات، ولكن هذا التشكيل يختلف من مجتمع إلى مجتمع آخر ، ومن عصر إلى عصر آخر ، حسب الظروف الخاصة بكل مجتمع والقوى المؤثرة فيه، وتبعًا للتغيرات التي يفرضها كل عصر.[2] فلكل مجتمع من المجتمعات نظامه التربوي الذي يختلف باختلاف المجتمعات والعادات والتقاليد والديانة السائدة فيه ولذلك تختلف أهداف التربية من مجتمع إلى آخر، ومجتمعنا الإسلامي يُعد

١ – راشد بن ظافر الدوسري، تلخيص كتاب: "مبادئ أساسية في اجتماعيات التربية" تأليف د . سهير محمد حوالة، ط/١، عام ١٤٢٤هـ، دار النشر الدولي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ص: ٤.

٢– أحلام رجب عبد الغفار: ملامح الفكر التربوي عند ابن القيم الجوزية، قسم أصول التربية، كلية التربية للبنات، الرياض .نقلًا عن: عبد الغني عبود: دراسة مقارنة لتاريخ التربية (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٨) ص ص ٥١– ٥٢.

نموذجًا لتلك المجتمعات التي تنوعت فيها الآراء والأفكار والاجتهادات للمفكرين التربويين المسلمين الأوائل تبعًا لاختلاف الظروف الحياتية والبيئية والمشكلات التربوية ، بالإضافة إلى شخصية كل مفكر وفلسفته ونشأته وأعماله والعوامل التي أثرت في تشكيل وبلورة آرائه وأفكاره حسب ظروف عصره الذي وُجد فيه.

كما أنه كان للمجتمعات الغربية أيضًا دور كبير أيضًا في مجال بناء الفكر التربوي المعاصر ، وذلك من خلال جهود العديد من الفلاسفة والمفكرين الذين أثروا المجال التربوي بالعديد من الفلسفات والآراء والأفكار التربوية، ،والتي كانت جميعها تهدف إلى بناء الإنسان الصالح المحب لوطنه، وبما يشكل أداة مهمة في بناء هذه المجتمعات وتقدمها وتطورها.

وبناء على ما سبق فإن هذه الدراسة ترغب في إلقاء الضوء على الآراء والأفكار التربوية لكلا المجتمعين الإسلامي والغربي وذلك من خلال الاستعانة بجهود أحد الرموز التي تمثل كل من الفكرين وهما ابن القيم ممثلًا للفكر التربوي الإسلامي، وجون ديوي ممثلًا للفكر الغربي، وذلك لما لهما من ثقل كبير في كلا المدرستين وما اشتهرا به من آراء وأفكار تربوية غيرت من شكل ومضمون العملية التربوية والتعليمية في عصريهما، وذلك من خلال عقد دراسة مقارنة نقدية للتعرف على مواطن الاتفاق والاختلاف بين كلا الفكرين، وكيف يمكن الاستفادة من هذه الآراء والأفكار التربوية في معالجة مشكلات الواقع التربوي المعاصر.

– مشكلة البحث:

تُعد الدراسات التربوية المقارنة بين المجتمعات الإسلامية والمجتمعات الغربية محورًا مهمًا في أصول التربية الإسلامية، ولقلة الدراسات في هذا المجال برز فلاسفة الفكر الغربي في مجتمعاتنا الإسلامية، ومثل هذه النوعية من الدراسات المقارنة تُبرز أهمية دراسات علمائنا المسلمين أو كما أشار الغزالي في عنوان كتابه (إحياء علوم الدين) أي: إننا بهذه الدراسات نُحي علوم الدين ومن هذه الفكرة تبرز إشكالية البحث، فلقد تم اختيار كل من ابن القيم كنموذج عن الفكر التربوي الإسلامي، وجون ديوي عن الجانب الغربي؛ لإجراء مقارنة وذلك للوقوف على مدى الاختلاف والاتفاق بينهما في الآراء والأفكار التربوية بهدف

الإفادة من تلك الآراء في معالجة مشكلات الواقع التربوي المعاصر وكذلك الوصول إلى إبراز مكانة الفكر الإسلامي في التربية ونشأة الفرد المتعلم الشغوف بطلب العلم. وبناء على ما سبق يمكن صياغة مشكلة البحث في التساؤل الرئيس التالي:

– ما مدى اتفاق الآراء والأفكار التربوية لابن القيم، واختلافها مع نظريات الفكر التربوي الحديث– جون ديوي نموذجًا؟

ويتفرع من هذا التساؤل الرئيس التساؤلات الفرعية التالية:

١. ما أهم الملامح الرئيسة لشخصية ابن القيم من حيث: حياته، وأعماله، العوامل التي أثرت في أفكاره، أفكاره الفلسفية العامة؟

٢. ما أهم الملامح الرئيسة لشخصية جون ديوي من حيث: حياته وأعماله، العوامل التي أثرت في أفكاره، أفكاره الفلسفية العامة؟

٣. ما الآراء والأفكار التربوية العامة عند ابن القيم ؟ وما أثرها في تربية عصره؟

٤. ما الآراء والأفكار التربوية العامة عند جون ديوي؟ وما أثرها في تربية عصره؟

٥. كيف يمكن الإفادة من الآراء والأفكار التربوية لكل من ابن القيم وجون ديوي في معالجة مشكلات الواقع التربوي المعاصر؟

أهداف البحث:

يهدف البحث الحالي إلى تحقيق الأهداف الآتية:

– تحديد مدى الاتفاق بين الآراء والأفكار التربوية لابن القيم، واختلافها مع نظريات الفكر التربوي الحديث – جون ديوي نموذجًا؟

١. تحديد أهم الملامح الرئيسة لشخصية ابن القيم من حيث: حياته، وأعماله، العوامل التي أثرت في أفكاره، أفكاره الفلسفية العامة.

٢. تحديد أهم الملامح الرئيسة لشخصية جون ديوي من حيث: حياته وأعماله،

العوامل التي أثرت في أفكاره، أفكاره الفلسفية العامة.

٣. الكشف عن الآراء والأفكار التربوية العامة عند ابن القيم. و تحديد أثرها في تربية عصره.

٤. الكشف عن الآراء والأفكار التربوية العامة عند جون ديوي. وتحديد أثرها في تربية عصره.

٥. الإفادة من الآراء والأفكار التربوية لكل من ابن القيم وجون ديوي في معالجة مشكلات الواقع التربوي المعاصر.

منهج البحث:

استخدم الباحثان في دراستهم المنهج الوصفي؛ لاستقراء أوجه الاتفاق والاختلاف بين الآراء والأفكار التربوية لابن القيم وجون ديوي، واستقراء نقاط القوة والضعف لكلا الفكرين إلى جانب المنهج المقارن حسب طبيعة الأفكار المندرجة من واقع الفكرين، فالمقارنة هي: "نوع من البحث يهدف إلى تحديد أوجه التشابه والاختلاف بين ظاهرتين أو أكثر أو بالنسبة لظاهرة واحدة ولكن ضمن فترات زمنية مختلفة"[١].

– أهمية البحث:

تتمثل أهمية البحث الحالي في أن الغرب يعتبر نفسه المصدر الوحيد للفكر التربوي في العالم أجمع، والذي لا يعرف إلا: "جون ديوي"، و"جون لوك"، و"باستلوتزي"، "وروسو"، و"بياجيه"، و"ثورنديك" وغيرهم من أعلام الفكر الغربي، وللأسف فإن الكثير من الباحثين والمتخصصين لدينا في مجال التربية وعلم النفس وعلم الاجتماع قد تأثروا بأفكارهم ونظرياتهم أكثر من علماء الفكر التربوي الإسلامي، وفي الوقت نفسه نجد أن المجتمعات الشرقية والإسلامية تنعم بثروة فكرية عظيمة في التربية يكفي أن معظمها ينطلق من كتاب الله وسنة

١- محمد صفوح الأخرس: المنهج وطرائق البحث العلمي في علم الاجتماع (دمشق: المطبعة الجديدة، ١٩٨٤) ص ص ٢٢٢ – ٢٢٣ .

رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم، فنجد شيخ الإسلام ابن تيميه، وابن القيم الجوزية، وابن خلدون، وأبو حامد الغزالي وغيرهم الكثير من أعلام الفكر التربوي الإسلامي.

ومن هنا تنبع أهمية البحث الحالي والذي يحاول أن يبرز الفكر التربوي الإسلامي ممثلًا في ابن القيم أمام الفكر الغربي ممثلًا في جون ديوي أحد أهم أعلام الفكر الغربي في القرن العشرين. كما تتضح أهمية البحث الحالي أيضًا من خلال استعراض النقاط التالية:

١. الأول من نوعه في حدود علم الباحثين من حيث المقارنة بين الآراء التربوية لابن القيم من جهة وبين الآراء التربوية في نظريات الفكر التربوي الحديث، ممثلة في فكر جون ديوي من جهة أخرى. ومحاولة الاستفادة من هذه الآراء في معالجة مشكلات الواقع التربوي المعاصر.

٢. يحاول التخلص من إشكالية معرفة وتحديد المقاربات بين الآراء والأفكار التربوية عند علماء المسلمين ، والفكر التربوي الغربي من النواحي الفلسفية والإنسانية (النفسية) والاجتماعية والمعرفية.

٣. الكشف عن الآراء التربوية للأمام ابن القيم في ضوء نظريات الفكر التربوي الحديث.

٤. التعرف علي الفكر التربوي لشخصية إسلامية لم تحظ بالبحث ضمن رجالات التربية الإسلامية بشكل مركز فيما يتعلق بالجوانب التربوية.

٥. إظهار التجديد والعطاء المستمر في الفكر التربوي الإسلامي.

– محددات البحث:

تنحصر معالجة البحث الحالي حسب المحددات التالية:

١. تناول الفكر والفلسفة البرجماتية (pragmatism) كممثل للفكر التربوي الحديث. وقد ساهم في تدعيم الحركة أو الفلسفة البرجماتية وتوضيح مبادئها والدعاية لها كثير من الفلاسفة والعلماء المربين الأمريكيين. اربعة منهم يمكن ان يُعدوا المؤسسين الحقيقين لهذه

الحركة أو الفلسفة وهم "تشارليز بيرس" و "وليم جيمس" و "جون ديوي" و "جورج هربرت ميد"، وقد أتى من بعد هؤلاء كثير من المربين التقدميين الذين حملوا لواء الفكر والفلسفة البرجماتية. ونحن إذا كنا لا نستطيع أن نتناول بالدراسة والتحليل الآراء والأفكار التربوية لهؤلاء البرجماتيين جميعًا- فإنه لا أقل من أن نتناول واحدًا منهم على سبيل المثال، وليكن هذا المربي البرجماتي هو "جون ديوي" الذي يُعد من المؤسسين الأوائل للمذهب البرجماتي ومن أكثر البرجماتيين إنتاجًا ونشاطًا في سبيل تدعيم هذا المذهب أو الفلسفة.

٢. سيقتصر البحث الحالي على عرض وتناول الآراء والأفكار التربوية لكل من ابن القيم وجون ديوي حسب الآتي:

- الآراء والأفكار الفلسفية العامة.
- الآراء والأفكار المتصلة بمعنى التربية ومفهومها.
- الآراء والأفكار المتصلة بأهداف التربية وغاياتها.
- الآراء والأفكار المتصلة بالمنهج الدراسي.
- الآراء والأفكار المتصلة بطرق التدريس.
- الآراء والأفكار المتصلة بطبيعة القيم الأخلاقية.

مصطلحات البحث:

- التربية:

ترجع التربية في أصلها اللغوي إلى الفعل (ربا – يربو) أي نما وزاد، ويتضمن المعنى اللغوي للتربية عملية النمو والزيادة. وبالنسبة للإنسان يكون هذا النمو في جسمه وعقله وخلقه... إلخ، أي أن المقصود بعملية التربية هو تنمية البشر وبناؤهم[١].

وقد عرف "دوركايم" التربية بأنها الإجراء الذي يمارسه الأجيال الأكبر سنًا على الأجيال

١ - إبراهيم عصمت مطاوع: أصول التربية(القاهرة: المكتب المصري الحديث، ١٩٨٨) ص ٦.

التي لم تستعد بعد للحياة الاجتماعية. وهدف التربية إيقاظ وتنمية تلك الجوانب الجسمية والعقلية والخلقية للطفل والتي يتطلبها منه كل من المجتمع والبيئة التي أعد من أجلها. [١] ويرى " جون ديوي" أن التربية نمو إلى ما هو أحسن بالنسبة للفرد والجماعة، وفي رأيه أنه ليست هناك أهداف ثابتة للتربية[٢]. والتربية في الإسلام تعني: بلوغ الكمال بالتدريج، ويقصد بالكمال هنا كمال الجسم والعقل والخلق حيث أن الإنسان موضوع التربية.

ويتبنى البحث الحالي تعريف John Dewey للتربية وهو "أن التربية تعني مجموعة العمليات التي يستطيع بها مجتمع أو زمرة اجتماعية، أن ينقلا سلطاتهما وأهدافهما المكتسبة بغية تأمين وجودها الخاص ونموهما المستمر . فهي باختصار "تنظيم مستمر للخبرة".

– الفكر:

عرف ابن منظور في لسان العرب الفكر بقوله: الفكر، والفكر: أعمال الخاطر في الشيء (...) والتفكر اسم التفكير، ومنهم من قال فكري، وقال الجوهري: التفكر: التأمل.٣ وعرفه الفيروز آبادي بقوله: الفكر، بالكسر ويفتح، أعمال انظر في الشيء كالفكرة[٤].

يقول جميل صليبا: "وجملة القول أن الفكر يطلق على الفعل الذي تقوم به النفس عند حركتها في المعقولات، أو يطلق على المعقولات نفسها، فإذا اطلق على فعل النفس دل على حركتها الذاتية، وهي النظر والتأمل، وإذا اطلق على المعقولات دل على المفهوم الذي تفكر فيه النفس".[٥]

وعرفه صاحب (المعجم الوسيط) بقوله: "الفكر إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى

– أحمد إسماعيل حجي: المدخل إلى التربية والعلوم التربوية (القاهرة: النهضة المصرية، ١٩٩٢) ص ١٠١٢

– جون ديوي: الديمقراطية والتربية، ترجمة نظمي لوقا (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨) ص ٢٠١٣

ابن منظور: لسان العرب، مادة فكر.٣.

– الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مادة فكر .٤.

– جميل صليب: المعجم الفلسفي (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ج٢، ١٩٨٢) ص ٥١٥٦

معرفة المجهول [و] الفكرة: الصورة الذهنية لأمر ما".[١]

أما صاحب الموسوعة الفلسفية فقد ذكر عدة تعريفات منها: الفكر [هو] النتاج الأعلى للدماغ كمادة ذات تنظيم عضوي خاص، وهو العملية الايجابية التي بواسطتها ينعكس العالم الموضوعي في مفاهيم وأحكام ونظريات (...) هو الشرط الجوهري لأي نشاط آخر، طالما أن هذا النشاط هو نتيجته المجملة والمتمثلة، والكلام هو صورة الفكر".[٢]

وبالنظر في مجموع ما تم تقديمه من أمثلة، وغير ذلك مما تركناه تفاديا للتطويل، يستفاد ما يلي:

أ- الفكر بمعنى إعمال النظر والتأمل في مجموعة من المعرف بهدف الوصول إلى تحقيق معرفة جديدة.

ب- الفكر بمعنى الثمرة التي تنتج عن عملية التفكير.

ج- إن التفكر عملية عقلية تستخدم فيها كل الوسائل المساعدة للوصول إلى حقيقة الدنيا والآخرة...

د- الفكر مرادف للنظر، وهو أعمال العقل في الأمور المختلفة للوصول إلى أمر جديد.

هـ- التفكير تمرثه التذكير.

- الفكر التربوي:

ويقصد به "الآراء والتصورات والمبادئ التي قدمها علماء التربية أو النظرية التربوية كما يتصورها علماء التربية".[٣]

فالفكر التربوي هو "ما أبدعته عقول الفلاسفة والمربين عبر التاريخ، فيما يخص مجال

١- إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الفلسفي (القاهرة: مجمع اللغة العربية، ط٢، ب.ت).

٢- نخبة من الباحثين السوفيات: الموسوعة الفلسفية-ترجمة سمير كرم (بيروت: دار الطليعة، ط٦، ١٩٨٧)-ص 333 .

- محمد منير مرسي: تاريخ التربية بين الشرق والغرب (القاهرة: عالم الكتب، د.ت) ص ٦ . ٣

التعلم الإنساني، وتنمية الشخصية وشحذ قدراتها، ويتضمن: النظريات والمفاهيم والآراء التي وجهت عملية تربية الإنسان عبر العصور".[١] ويقصد بالفكر التربوي في هذا البحث، الآراء والأفكار التربوية لابن القيم وجون ديوي.

الدراسات السابقة:*

لاحظ الباحثان من خلال إعدادهما لهذا البحث أن هناك ندرة في الدراسات السابقة التي تجمع بين ابن قيم وعلماء الغرب، حيث يعدّ البحث الحالي – حسب علما الباحثين- من البحوث والدراسات الأولية في هذا الصّدد، وعلى كل فإننا نشير فيما يأتي بعض الدراسات التي اطلع عليها الباحثان واستفادا منها كدراسات سبقت دراستهما.

الدّراسة الأولى: الفكر التربوي عند ابن القيم[٢]

هدف هذا البحث إلي إبراز الفكر التربوي لعلم من أعلام الإسلام، كما هدف أيضاَ إلي المشاركة في علاج ما لمسه الباحث من وجود انحراف في الفكر التربوي لدى الكثير من الكتاب المسلمين في التربية، والمساهمة في تأصيل التربية عن طريق الوقوف على التراث التربوي الإسلامي. وقد توصل البحث إلى بعض النتائج كان من أهمها، وضوح النظرية التربوية لابن القيم وأصالتها وحيويتها، فهي تتحلى بروح التجديد، فتجمع بين الأصالة والمعاصرة، لأنها مستمدة من دين الإسلام الخالد وأصوله الثابتة. كما عرض البحث لعدة توصيات كان من بينها: إن أفكار ابن القيم التربوية صالحة اليوم؛ لذا أوصى بضرورة أن تتولى كلية العلوم الاجتماعية الكتابة للجهات الرسمية القائمة بالتربية والتعليم بأهم المعالم لهذه النظرية التربوية مع بيان الوسائل الجيدة للتطبيق العلمي.

١- مصطفى زيادة: الفكر التربوي: مدارسه واتجاهات تطوره(الرياض: مكتبة الرشيد، ٢٠٠٢) ص ٢٤ . ١

* في حدود علم الباحثين لا توجد دراسة مقارنة بين الفكر التربوي لابن القيم وجون ديوي.*

٢- حسن بن علي بن حسن الحجاجي: الفكر التربوي عند ابن القيم (جدة: دار حافظ للنشر والتوزيع، الطبعة الأولي، ١٩٨٨). ٢

الدّراسة الثّانية: تطور النظريات والأفكار التربوية:[١]

هدف هذا البحث إلى رصد تطور النظريات التربوية في العالم الغربي منذ العصور البدائية حتى القرن العشرين، متناولًا في ذلك أهم النظريات والحركات والأفكار التربوية التي ظهرت في مختلف العصور والقرون، مع الإشارة إلى أهم العوامل التي أثرت في هذا التطور وإلى أبرز المربين الذين يمثلون تلك النظريات والحركات وإلى أهم أفكارهم التربوية. وكان من بين هؤلاء المربين الذين تناولهم البحث بالدراسة "جون ديوي"، واستخدم الباحث في دراسته المنهج التاريخي.

الدّراسة الثّالثة: التربية من وجهة نظر الفلسفات الفكرية والتربية الإسلامية:[٢]

هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على واقع بعض المدارس الفكرية الفلسفية (المثالية، الواقعية ، الطبيعية، والبرجماتية) والوقوف على أهم المبادئ التي ترتكز عليها والتعرف على نظرة كل منها إلى التربية والهدف منها هذا من جهة، ومن جهة أخرى هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على التربية الإسلامية من حيث: المفهوم والمبادئ والنظر إلى العملية التربية، وبعد الانتهاء من عرض الأدبيات تم عرض الأدبيات تم عقد مقارنة بين الفلسفات الفكرية الغربية والتربية الإسلامية، وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج كان من أبرزها: تفرد وتميز التربية الإسلامية عن نظيرتها في الفكر الغربي.

رابعًا: تعليق عام على الدراسات السابقة:

من خلال العرض السابق للدراسات السابقة يتضح لنا أنها جميعًا اتفقت في الهدف العام وهو تناول الآراء والأفكار التربوية لمفكرين إسلاميين وكذلك مفكرين ينتمون للفكر الغربي، إلا أنهم اختلفوا في المضمون ، حيث اقتصرت بعض الدراسات على الفكر التربوي الإسلامي مثل دراسة (حسن ابن علي، ١٩٨٨) و(المعتصم بالله جوارنة، ب.ت) والبعض الآخر اقتصر على دراسة الآراء والأفكار التربوية لبعض مفكري الغرب مثل: (عمر حسن

- عمر محمد التومي الشيباني: تطور النظريات والأفكار التربوي (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧١).١

- المعتصم بالله سليمان الجوارنة: التربية من وجهة نظر الفلسفات الفكرية والتربية الإسلامية، كلية التربية، جامعة الملك خالد، قسم التربية، بدون تاريخ. ٢

الشيباني، ١٩٧١)، إلا أن الدراسة الحالية تتميز بأنها جمعت بين كلا الفكرين الإسلامي والغربي في دراسة واحدة بهدف عقد راسة مقارنة بينهما والكشف عن أوجه الاتفاق والاختلاف ومحاولة الافادة منهما في إيجاد حلول لمشكلات الواقع التربوي المعاصر.

الهيكل التنظيمي للبحث:

يمكن تقسيم البحث حسب المحاور الآتية:

– المحور الأول: الملامح الرئيسة لشخصية ابن القيم وجون ديوي:

أ– الملامح الرئيسة لشخصية ابن القيم من حيث: حياته، وأعماله، العوامل التي أثرت في أفكاره، أفكاره الفلسفية العامة.

ب– الملامح الرئيسة لشخصية جون ديوي من حيث: حياته وأعماله، العوامل التي أثرت في أفكاره، أفكاره الفلسفية العامة.

– المحور الثاني:الآراء والأفكار التربوية لابن القيم وجون ديوي:

أ– الآراء والأفكار التربوية العامة عند ابن القيم. و تحديد أثرها في تربية عصره.

ب–الآراء والأفكار التربوية العامة عند جون ديوي. وتحديد أثرها في تربية عصره.

– المحور الثالث:

– أوجه الاتفاق والاختلاف بين الآراء والأفكار التربوية لابن القيم وجون ديوي.

المحور الرابع:

– أوجه الاستفادة من الآراء والأفكار التربوية لابن القيم وجون ديوي في معالجة مشكلات الواقع التربوي المعاصر.

المحور الخامس: النتائج والتوصيات:

– أهم نتائج البحث.

– توصيات البحث.

– المحور الأول: الملامح الرئيسة لشخصية ابن القيم وجون ديوي

أ– الملامح الرئيسة لشخصية ابن القيم من حيث: حياته، وأعماله، العوامل التي أثرت في أفكاره، أفكاره الفلسفية العامة:

حياته وأعماله:

إن ابن القيم الجوزية هو محمّد بن أبي بكر بن سعد بن حريز الزرعي، ولد ابن القيّم في دمشق عام ٦٩١ هـ، وتوفي بها عام ٧٥١ هـ، حيث عاش فترة تناهز الستين عامًا، وتتلمذ ابن القيم على أيدي شيخ الإسلام ابن تيمية منذ عام ٧١٢ هـ وحتى وفاته عام ٧٧٢هـ، اي لفترة امتدّت نحو ستة عشر عامًا، ولشدّة وفائه لأستاذه سجن معه فتتلمذ على أيدي أشهر وأعظم الأساتذة في عصره[١].

ونظرًا لما مرّ به عصر ابن القيم رحمه الله تعالى من ويلات عديدة من حروب صليبية وهجمات مغولية تتارية التي أدّت حدوث اضطرابات في شئون الدولة والأفراد خاصة بعد استيلاء هولاكو على بغداد وسقوط الخلافة العباسية، وتضافرت شهوات السياسة وفساد العقيدة، على كبت العلماء والبطش بهم، فضعفت النّفوس واهتزّت القيم يومًا بعد يوم، ولجأ النّاس إلى الخرافات والمفاسد تنفيسًا عن الكرب الّذي حلّ بهم، ولذلك كانت الحالة الدينية للناس انعكاسا للحالة السياسية، كما كان لها أكبر التأثير على كتابات وآراء ابن القيم؛ حيث نلاحظ أن أغلبها كان للرّد على المخالفين في الشّريعة الإسلامية من الطوائف المختلفة، والردّ على البدع والخرافات التي انتشرت في عصره وتصحيح عقيدة العامة من الناس محتذيا حذو شيخه الإمام ابن تيمية، فدعا القادرين على الاجتهاد إلى الاجتهاد وأعلن حربًا على التقليد المتعصب الأعمى ولذلك بدأ بنفسه، فألّف كتب الجيوش الإسلامية في الرّد

١ – وقد لقب ابن القيم بالزرعي نسبة إلى قرية زراع في حوران والتي يطلق عليها حاليا (أزرع) وأحيانًا يطلق عليه اسم أبو عبد الله شمس الدين الدمشقي نسبة إلى دمشق، ولقب بالجوزرية نسبة إلى مدرسة بسوق القمح التي أنشأها محي الدين بن الحافظ الجوزي، وقد اشتهرت المدرسة بشهرة قيمها (رئيس خدمها) وابنه الذي صار إمامًا بالمدرسة نفسها. انظر: د. أحلم رجب عبد الغفار، ملامح الفكر التربوي عند ابن قيم الجوزية، ص:٦٦.

على الجهمية –أخبار النساء– الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية– التبيان في أقسام القرآن– ثم كتابع مفتاح دار السعادة الذي ذكر فيه أكثر من ٥٠ فائدة يؤثر بها العلم على المال، ويرى أن أصل سعادة الإنسام تحدث بالعلم[١].

ومما خلّفه ابن القيم من مؤلفاته كتاب "التحبير لما يحلّ ويحرم من لباس الحرير"، وكتاب "المفتاح"، وتهذيب سنن أبي داود، وإيمان القرآن، "واجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية"، ومعرفة الروح والنّفس، والتعليق على الأحكام، وتحفة النازلين بحوار رب العالمين، والاجتهاد والتقليد، وكتاب في أحكام أهل الملل، وكتاب سفر الهجرتين وباب السّعادتين، ومراحل السّائرين بين منازل(إياك نعبد وإياك نستعين)، وهو شرح "منازل السائرين" لشيخ الإسلام الأنصاري، وعقد محكم الأحباء بين الكلم والطيب والعمل الصالح المرفوع إلى رب السماء، وشرح أسماء الكتاب العزيز، وزاد المسافرين إلى منازل السعداء في هدي خاتم الأنبياء... وزاد المعاد في هدي خير العباد، وجلاء الأفهام في ذكر الصّلاة والسّلام على خير الأنام، وبيان أحاديثها وعللها، وبيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، نور المؤمن وحياته، وحكم تارك الصلاة، عدة الصابرين، الكبائر، جوابات عابدي الصّلبان وأن ما هم عليه دين الشّيطان، أمثال القرآن، الصراط المستقيم في إحكام أهل الجحيم.. معاني الأدوات والحروف، وغير ذلك.

٢ – العوامل التي أثرت في تفكيره:

قبل الإشارة إلى أبرز أفكار "ابن القيم الجوزية" الفلسفية والتّربوية ومناقشتها يجدر بنا أن نُشير إلى أهم العوامل التي أثرت في هذه الأفكار. ومن هذه العوامل الأحداث التي مرت بها عصر ابن القيم مما أشرنا إليه سابقًا؛ من الاضطرابات السياسية والحروب المتعددة التي أثرت على المجتمع، وانقلب مجتمع مشهور بالعلم والعلماء إلى مجتمع بدأ يتفشّى فيه الجهل والخرافات، وأيقظ همّم أمثال هؤلاء العلماء للإصلاح الاجتماعي عن طريق التربية، لأن

١ – انظر: د. أحلام رجب عبد الغفار، ملامح الفكر التربوي عند ابن قيم الجوزية، المرجع السّابق: ص: ٦٦ وانظر كذلك حسن بن علي بن حسن الحجاجي: الفكر التربوي عند ابن القيم، مرجع سابق، ص: ٤٦.

التربية هي الوسيلة الفعّالة لأحداث التغييرات في المجتمعات. ويعتبر ابن القيم من هؤلاء العلماء الذين تأثّروا بظروف عصرهم وأثروا فيه. فلقد كانت ظروف عصره مليئة بالقائل والحروب المدّمرة والاضطرابات السياسية والدينية، لذلك كانت مؤلفاته معبرة أصدق تعبير على قوة التفاعل بين المفكر وظروف عصره، كما كان لها كبير الأثر في توجيه الأحداث في مجتمعه الوجهة الصحيحة، وما زالت مؤلفاته إلى الآن منهل لطلاب العلم والمعرفة في كثير من العلوم، كعلم الكلام والجدل، والتّفسير والفقه، والوعظ والسيرة، والتّاريخ، والأدب، والفلك، والكيمياء، والصيدلة، والطّب ونحو ذلك.

–أفكاره الفلسفية العامة:

إن العلاقة بين الفلسفة والتربية علاقة وثيقة، فكل فيلسوف تتضمن فلسفته نظرية تربوية وكل تربوي له نظرة فلسفية، غير أن الباحث في التربية لا ينبغي عليه أن يركز على التفاصيل الفلسفية الدقيقة بقدر ما هو مطالب بإبراز قدر كافٍ من آراء المفكّر في مجال التربية.

بعض أفكاره التربوية المتعلقة بطبيعة الكون وطبيعة الإنسان، و أفكاره ومعتقداته المتصلة بنظرية المعرفة:، و أفكاره ومعتقداته المتصلة بنظرية المعرفة، و أفكاره ومعتقداته المتصلة بنظرية القيم الأخلاقية:

١– أفكاره ومعتقداته المتصلة بطبيعة الكون وطبيعة الإنسان:

من أبرز أفكاره المتصلة بطبيعة الكون، أنّها تحت مشيئة الله تعالى وقدرته وتسخيره، يفعل فيها ما يشاء، وهو بهذا يردّ على الطّبيعيين الذين يرون أنها تخلق وتفعل ما تشاء، يقول –رحمه الله تعالى–: " .... المسلمون يقولون إن الطبيعة خلق من الله مسخّر مربوب، وهي سنته في خليقته التي أجراها عليه، ثمّ يتصرّف فيها كيف شاء وكما شاء، فيسليها تأثيرها إذا أراد، ويقلب تأثيرها إلى ضده إذا شاء، ليُرى عباده أنّه وحده الخالق البارئ المصوّر، وأنّه يخلق

ما يشاء كما يشاء"[1] كما يرى في طبيعة الإنسان أنّه هو محور العملية التربوية. فالله سبحانه وتعالى لم يخلقه عبثًا، بل خلقه لغاية شريفة ألا وهي عبادته وحده دون سواه، وقد خلق سليم الفطرة، متميّزا بخصائص لا تتوافر في غيره من المخلوقات، وأنه عبارة عن مجموع الروح والعقل والبدن، وأنّه مزوّد بأدوات كسب العلم من السّمع والبصر والفؤاد وغير ذلك.[2]

٢– أفكاره ومعتقداته المتصلة بنظرية المعرفة:

من أفكاره المتصلة بنظرية المعرفة التفريق بين العلم والمعرفة، حيث يرى ابن قيم رحمه الله تعالى بأنّ لفظ العلم أوسع وأشمل من لفظ المعرفة وقد توارد ذكره في القرآن الكريم في العديد من الآيات والسّور، ولذلك اختار سبحانه وتعالى لنفسه اسم العلم وما تصرف منه، فوصف نفسه بأنّه عالم، عليم، وعلاّم، علم، ويعلم، وأخبر أن له علمًا، دون لفظ المعرفة في القرآن، ومعلوم أنّ الاسم الذي اختاره الله لنفسه أكمل نوعه، العلم أصل كل خير وهدى وكمال، بينما لم يتوارد لفظ المعرفة إلاّ في القليل من الآيات القرآنية التي تصف مؤمني أهل الكتاب.

كما يرى ابن قيم أن العلوم والمعرفة الإنسانية محدودة مهما اتسعت ومهما بلغت مصداقًا لقوله تعالى " وفوق كل ذي علم عليم"[3]، ولزيادة انتفاع الإنسانية بالمعارف والمكتشفات العلمية، كانت مشيئته في جعل العلوم والمعرفة جزئية متدرجة متتالية متراكمة عالمية، كما أنها منطقية واقعية تقع في دائرة العقل الإنساني، أما ما فوق ذلك فهو في دائرة العلم الإلهي ليس للإنسان أن يعرفها أو يتساءل عنها، ولذلك يقول ابن القيم إن الله سبحانه وتعالى كشف للإنسان عن علوم الطبّ والحساب والزراعة، وضروب الصّنائع وتركيب الأدوية، وصيد الوحوش والطّير ودواب الماء، والتّصرّف في التّجارات ومعرفة وجوه المكاسب. وغير ذلك مما فيه قيام معاشهم، ثم منعهم سبحانه وتعالى معرفة علم ما سوى ذلك مما ليس

١– ابن قيم، مفتاح دار السعادة ٢٦٢/١، والفكر التربوي عند ابن القيم، مرجع سابق، ص: ٤٢

٢– الفكر التربوي عند ابن القيم، مرجع سابق، ص:٤٩١

٣– سورة يوسف، الآية: ٧٦

من شأنهم، ولا فيه مصلحة لهم ولا نشأتهم قابلة له"[١]

٣- أفكاره ومعتقداته المتصلة بنظرية القيم الأخلاقية:

أما أفكاره المتصلة بالقيم الأخلاقية فإن من أهمها: مفهوم الخلق بأنه هو السلوك الحميد الذي يسلكه الفرد مع الآخرين، فيصف أدب المريد أو السالك لله تعالى بقوله "وأدب فيهم يصونهم وظرف يهذبهم"[٢] ويقصد بالتهذيب هو التأديب بالآداب الإسلامية التي يرتضيها الله ورسوله، ولذلك قسم ابن قيم الأخلاق إلى صنفين أخلاق محمودة، وأخرى مذمومة.

ويرجع الأخلاق بأنواعها إلى أصولها فيقول" أصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر والمهابة والدناءة، وأصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوع وعلو الهمّة".[٣]

وكما أن لكل شيء حدًّا ومعيارًا محدّدًا إذا بلغه يصل إلى درجة الكمال وإذا زاد عنه أو نقص فإنّه يبتعد عن درجة الكمال، فكذلك الأخلاق، ويرى ابن قيم " إن للأخلاق حدًّا متى جاوزته صارت عدوانًا ومتى قصرت عنه كانت نقصًا ومهانة، فللغضب حدّ وهو الشّجاعة المحمودة، والأنفة من الرّذائل والنّقائص وهذا كماله، فإذا جاوز حده تعدّى صاحبه وجار وإن نقص عنه جبن ولم يأنف الرّذائل، وضابط هذا كلّه العدل وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفى الإفراط والتفريط٤". فعلى الإنسان أن يتحلّى بالأخلاق المحمودة حتّى يصبح إنسانًا فاضلًا، وأن يتعوّد على هذه الفضائل حتى تصير أخلاقًا له، وعاداته سلوكية يصدر عنها كل تصرّفاته وأفعاله٥. وأنّ هذه الأخلاق الفاضلة هي التي تكسب العلم والمعرفة اللذين يريان العبد مواضع الخير وطرقه، ومسالكه وسبله ويكشفان له عن سبل الشّر ومجالاته، والحديث في التربية الخلقية يتناول عموميات الأخلاق التي تعنى هدي هذا الدين في

١- ابن قيم، مدارك السالكين بيم منازل إياك نعبد وإياك نستعين) دار التراث العربي) بيروت) لبنان) بدون تارخ، ص: ، وانظر أحلام رجب عبد الغفار، ملامح الفكر التربوي عند ابن قيم الجوزية، ص: ٦٨.

٢-ابن قيم، مفتاح دار السعادة، ص:٤٤، الجزء الثاني.

٣- ابن قيم، مدارج السالكين،ص:١٣٠

٤- ابن القيم، بدائع الفوائد، ص:١٤٣

٥- أحلام، ملامح الفكر التربوي عند ابن قيم، مرجع سابق، ص: ٦٩.

جميع المجالات كما تتناول مفردات الأخلاق من البر والصّلة والصّدق والأمانة والصّبر والشّكر وغير ذلك. وفكر ابن قيم التربوي تناول عموميات الأخلاق ومفرداتها، والمربّي في أمس الحاجة إلى التربية الخلقية ليستقيم أمره ويصلح حاله ويشعر بالأمن والسعادة، والأخلاق الفاضلة تتميّز عن الأخلاق الدّنيئة بما فيها من حسن وخير تهتدي إليه العقول السّليمة والفطر المستقيمة، كما أنّ الأخلاق الدّنيئة تختلف عنها بما تحويه من قبح وشر تعرفه تلك الفطر وتلك العقول[1].

كما يؤكّد أن عماد القيم الروحية والخلقية في القرآن الكريم والسنة، هو تحقيق الوازع الدّيني في نفس الإنسان فيكون هو مصدر سلوكياته وتصرّفاته، وأنّ الأخلاق في أصلها مكتسبة غير موروثة يمكن اكتسابها عن طريق العادة أو التّقليد أو التّرغيب والتّرهيب، ولذلك يرى ابن قيم ضرورة أن تبدأ عملية اكتساب الأخلاق منذ ميلاد الطّفل، لأنّ ما يتعرّض له عقب الولادة من متاعب وآلام تؤثّر في نفسيته، ومن ثمّ على أخلاقه، ولهذا اهتمّ ابن قيم بمرحلة الطفولة المبكّرة وكل ما يتعلق بها، كما اهتم بالمراحل التالية، وحتى فترة مناهزة الاحتلام، أو ما يسمى حاليا بفترة المراهقة " ينبغي تجنّبه مضار الشّهوات المتعلقة بالبطن والفرج، فإن تمكينه من أسبابها والفسح لها فيها يفسده فسادًا يعزّ عليه بعده صلاحه، والصّبيّ إن لم يكن مكلّفًا فوليه مكلّف لا يحلّ له تمكينه من المحرم، فإنّه يعتاده ويصعب فطامه عنه"[2]

والتربية الخلقية ضرورة بشرية فالفرد بحاجة إليها لإقامة علاقة بينه وبين خالقه وبينه بين الناس، وهذه التربية لها أساليب منها:

١- وجود القدوة الصّالحة.

٢- إشراك الناشئ في مزاولة بعض الأخلاق كالإيثار والبذل والعطاء.

١- الفكر التربوي عند ابن قيم، مرجع سابق، ص: ٤٩٦.

٢- ابن قيم، بدائع الفوائد، ص:١٣٩، وانظر أحلام: ملامح الفكر التربوي عند ابن قيم، ص: ٦٩.

٣- التدريب والتّعويد على الأخلاق.

٤- مدح الأخلاق الفاضلة والثّناء على من يتحلّى بها على مسمع من المربّي.

وأساس الأخلاق عند المسلم هو تقوى الله وطلب مرضاته، خلافًا لغير المسلم الذي يكون أساس الأخلاق عنده المصلحة الذّاتية المحضة[١].

٥- هذه بعض معتقدات "ابن القيم" الفلسفية المتصلة بطبيعة الكون والإنسان وبطبيعة المعرفة وبطبيعة القيم الأخلاقية، وقد كان لهذه المعتقدات الفلسفية تأثير بالغ في أفكاره التربوية المتصلة بمعنى التربية وأهدافها.

ب- الملامح الرئيسة لشخصية جون ديوي من حيث: حياته وأعماله، العوامل التي أثرت في أفكاره، أفكاره الفلسفية العامة:

١- حياته وأعماله:

وُلد "جون ديوي" في مدينة "بورلنجتن Burlington" من ولاية "فيرمونت Vermont" سنة ١٨٥٩م، وقد تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدينته وتعليمه الجامعي في ولايته، وبعد إتمامه لتعليمه الجامعي في ولايته عام ١٨٧٩م اشتغل بالتدريس لفترة من الزمن في إحدى المقاطعات، ثم ما لبث أن تاقت نفسه لمواصلة دراساته العليا في ميدان الفلسفة والعلوم السياسية والتاريخية. وقد استطاع في سنوات قليلة أن يحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة "جون هوبكنز" عام ١٨٨٤م.

وبمجرد حصوله على الدكتوراه انضم إلى "جامعة متشجن" كمحاضر بها في الفلسفة، وقد بقي في هذه الجامعة لم يغادرها إلا فترة قصيرة إلى جامعة "مينيسوتا" حتى دعي عام ١٨٩٤م لتولي رئاسة قسم الفلسفة بجامعة شيكاغو. وقد استمر في رئاسة قسم الفلسفة في هذه الجامعة حتى انتقل منها في عام ١٩٠٤م إلى جامعة "كولومبيا"، ثم استمر في جامعة كولومبيا منذ هذا التاريخ حتى تقاعده عام ١٩٣٠م.

١- الفكر التربوي عند ابن قيم، مرجع سابق، ص: ٤٩٦.

وقد نال "ديوي" شهرة فائقة كفيلسوف مفكر وكمصلح تربوي كبير لا في الولايات المتحدة وحدها، ولكن في جميع انحاء العالم. وقد دفعت هذه الشهرة الكثير من البلدان المتقدمة لدعوته ليحاضر في جامعاتها وليساعدها في تنظيم تعليمها. وقد ظل "ديوي" في نشاط علمي دائب حتى توفي في اليوم الأول من شهر يونيه عام ١٩٥٢م عن عمر ناهز الثانية والتسعين[١].

ومن أبرز أعماله في الميدان التربوي إنشاؤه لمدرسته النموذجية في مدينة شيكاغو سنة ١٨٩٦م، وقد اتخذ "جون ديوي" من هذه المدرسة الابتدائية النموذجية حقلًا لتجربة نظرياته وآرائه التقدمية في التربية. وقد حاول "جون ديوي" أن يقيم برامج هذه المدرسة وإدارتها على مبادئ الفلسفة البرجماتية التي من بينها: وجوب الاتصال والتعاون بين المدرسة والبيت، ووجوب اتصال خبرات التلاميذ في المدرسة بخبراتهم خارج المدرسة، ووجوب جعل الأطفال يتعلمون عن طريق خبرتهم ونشاطهم الذاتي ووجوب احترام ميول التلاميذ وحاجاتهم وحريتهم في التعبير عن أنفسهم، ووجوب مراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ، واعتبار التربية عملية اجتماعية، والتركيز على التعاون بدلًا من التنافس، إلى غير ذلك من المبادئ التي كانت مطبقة في المدرسة التجريبية[٢].

وقد كان لهذه المدرسة أثر بالغ في التمهيد للتربية التقدمية التي سادت امريكا في النصف الأول من القرن العشرين، كما كان لها فضل كبير في إقناع الآباء بأهمية المبادئ التربوية التقدمية وبإمكانية تطبيقها.

ويمكن أن يُضاف إلى أعماله التربوية مئات المقالات وعشرات الكتب التي كتبها في الفلسفة والتربية. ومن أشهر كتبه التربوية: المدرسة والمجتمع، الطفل والمنهج، الديمقراطية

1- Frederic Eby, the Development of Modern Education. (2nd ed.) Englewood cliffs,N.J.: Prentice- Hall, Ins., 1960,pp.610-611.

2 - Ibid,pp.611-612. See also: K.C.Mayhew and A.C. Edwards, the dewey School. Appendix II New York: D. Appleton- Century Co, Inc, 1936.

والتربية، الخبرة والتربية، كيف نفكر؟ والطبيعة البشرية والتربية.

وإذا كان " جون ديوي " قد اشتهر بأعماله وكتبه التربوية كمرب من أعظم مربي القرن العشرين، فإنه قد كانت له نفس الشهرة تقريبًا في عالم الفلسفة، وكان يدعي – ولعله على حق في ادعائه– أنه الناطق بلسان الفلسفة الأمريكية والحامل للوائها. وقد أتى بتجديدات كثيرة تقدمية في مفهوم الفلسفة، وفي وظيفتها، وفي تفسير وفهم مشاكلها التقليدية.

٢– العوامل التي أثرت في تفكيره:

قبل الإشارة إلى أبرز أفكار "جون ديوي" الفلسفية والتربوية ومناقشتها يجدر بنا أن نُشير إلى أهم العوامل التي أثرت في هذه الأفكار. ومن هذه العوامل أفكار الفلاسفة والعلماء والمربين الذين اتصل بهم شخصيًا أو عن طريق كتاباتهم. وقد كان من بين من اتصل بهم وتأثر بأفكارهم "جورج موريس George Morris" الذي كان من بين أساتذته في الفلسفة، ثم زميلًا له في التدريس. فعن طريقه تعرف "ديوي" على الفلسفة الهيجلية، وقبل بالتدريج بعض من عناصر هذه الفلسفة. ولكنه بعد تعرفه ودراسته لنظرية التطور كما شرحها "تشارلز دارون" وغيره من أنصار هذه النظرية التي سادت في النصف الأول من القرن التاسع عشر – تحول إليها مفضلًا لها على الفلسفة الهيجلية؛ لأنه وجد فيها ما يتفق مع ميوله العلمية والتجريبية. ويظهر تأثره بهاتين الفلسفتين في الاسم الذي أطلقه بادئ الأمر على فلسفته عندما أصبحت له فلسفته الخاصة المحددة، فقد سمى فلسفته "بالفلسفة المثالية التجريبية"[1]، وهذا الاسم يحمل في طياته التأثر بالفلسفة المثالية وبالفلسفة العلمية الواقعية معًا.

وبجانب تأثره بأفكار الفلاسفة والعلماء والمربين السابقين عليه والمعاصرين له فقد تأثر أيضًا بعوامل كثيرة أخرى، من بينها: المبادئ التي تقوم عليها الحياة الديمقراطية ، والقيم السائدة في المجتمع الأمريكي، وخصائص ومتطلبات المجتمع الصناعي الذي عاش فيه.

1– Robert R. Rusk, the Doctrines of Great Educators. (rev.ed.) London: Macmillan and Co., 1962,pp.284-285.

وقد كان لهذه العوامل جميعًا تأثيرها في فلسفته العامة وفلسفته التربوية. وستتضح لنا بعض آثار ومظاهر هذا التأثير في المجموعة من أفكاره ومعتقداته الفلسفية والتربوية.

٣–أفكاره الفلسفية العامة:

استطاع "جون ديوي" أن ينجح إلى حد كبير في تكوين فلسفة كاملة متكاملة وفي تحديد آرائه ووجهات نظره بالنسبة للمشاكل الفلسفية الرئيسة المتصلة بطبيعة الكون وطبيعة الإنسان، وبنظرية المعرفة، وبطبيعة القيم الأخلاقية. ولإعطاء فكرة موجزة عن فلسفة " ديوي" يجدر بنا أن نُشير إلى بعض أفكاره الفلسفية المتصلة بالجوانب الثلاثة السابقة.

أ– أفكاره ومعتقداته المتصلة بطبيعة الكون وطبيعة الإنسان:

من أبرز أفكاره المتصلة بطبيعة الكون هو إيمانه بأن العالم ليس ثابتًا جامدًا ولا نظامًا مقفولًا، ولكنه عملية ديناميكية من التغير والتطور المستمر. والميزة الأساسية للحياة —في نظره— هو التغير، والحياة في مثل هذا العالم المتطور المتغير باستمرار لا تعدو عنده أن تكون عملية مستمرة من التكيف التجريبي للظروف المتغيرة المتجددة[1]، ومن كتبه الفلسفية التي أوضح فيها معتقداته المتصلة بطبيعة الكون والوجود الإنساني والمادي هو كتابه "الخبرة والطبيعة" ومن النقاط الرئيسة التي عالجها في هذا الكتاب: الخبرة كطريقة، والثقافة كسلسلة من الخبرات الإنسانية المتراكمة، واستمرار الطبيعة باستمرار الخبرة[2].

أما أفكاره المتصلة بالإنسان فإنها تتفق مع المبادئ الديمقراطية ومع المبادئ التي تقررها نظرية التطور والأبحاث الطبيعية والبيولوجية والنفسية. فهو يحترم الإنسان إلى أبعد حد ويعتبره غاية في حد ذاته، ويحترم حريته واختلافه عن غيره. وهو لا ينظر إلى الفرد على أنه عنصر منفصل عن المجتمع الذي يعيش فيه بل ينظر إليه على أنه عضو في جماعة وجزء لا يتجزأ من المجتمع.

1 – Kandel. I.L., American Education in the Twentieth Century. Cambridge, Massachusetts: Haward Universitypress, 1957,p.107.

2 - Jown Dewey, Experience and Nature, New York: Norton, 1925,1929.

وتطبيقًا لمبدأ الوحدة بالنسبة للإنسان فإنه لم يعترف بالفصل التقليدي بين الجسم والعقل والروح، وينظر إلى طبيعة الإنسان على أنها وحدة متكاملة لا فصل بين جوانبها الجسمية والعقلية والروحية، فالإنسان من وجهة نظره جسمي وعقلي في آن واحد[1]، وهو كما يؤمن بوحدة الطبيعة الإنسانية فإنه يؤمن أيضًا بالاتصال الكامل أو الاعتماد المتبادل بين الفرد والمجتمع وبين الإنسان والطبيعة فهو لا يرى فاصلًا بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية.

ب- أفكاره ومعتقداته المتصلة بنظرية المعرفة:

من أفكاره المتصلة بنظرية المعرفة إيمانه بأن المصدر الأساسي للمعرفة الإنسانية هو الخبرة والنشاط الذاتي للفرد. فأي معرفة يكتسبها الفرد إنما هي ناشئة -في نظره- عن خبرته وتفاعله مع البيئة المحيطة به وعن نشاطه وكفاحه من أجل البقاء ومن أجل الحصول على لقمة العيش والكساء والمأوى ومن أجل التغلب على المشاكل التي تواجهه في الحياة[2].

وهو كما يؤمن بأن المصدر الأساسي للمعرفة هو الخبرة وما تستلزمه من نشاط وتفاعل مع عناصر الشيء المراد معرفته فإنه يؤمن بأن كسب المعرفة يتطلب من قبل الباحث عن المعرفة شيئًا من التفاعل الاجتماعي المباشر أو غير المباشر، وهو يؤمن من جانب آخر بأداتية المعرفة والخبرة، ووظيفتها واستمرارها، وذلك تطبيقًا منه لمبدأ الأداتية ولمبدأ الوظيفية ولمبدأ إمكانية التطبيق ولمبدأ الاستمرار التي تعتبر من أهم المبادئ التي تقوم عليها فلسفته العامة وفلسفته التربوية.

والإيمان بأداتية المعرفة ووظيفتها وإمكانية تطبيقها يستدعي الإيمان بأن المعرفة الحقيقية هي التي تساعد الفرد على التغلب على مشاكل الحياة، وبأنه لا قيمة لأية معرفة لا يمكن استعمالها وتطبيقها في الحياة الحاضرة والمستقبلة، وفي اعتقاده أيضًا أنه لا قيمة لمعرفة الماضي

1 - John P. Wynne, Theories of Education. New York: Harper and Row, 1964,p.203.

2- Adolph E. Meyer, the Development of Education in Twentieth. Second Ed. New York: Prentice- Hall,Inc., 1950,p.43.

إذا لم تساعد على فهم وحل مشكلات الحاضر، ولم تساعد على التنبؤ بالمستقبل ولم تعط معنى لهذا المستقبل.

ويُعلي "جون ديوي" في نظرياته المتصلة بطبيعة المعرفة وبطبيعة القيم الأخلاقية من شأن الطريقة التجريبية، وينظر إليها على أنها مصدر مهم للمعرفة ووسيلة أساسية للتحقق صحتها، وفي نظره أن الطريقة التجريبية كمصدر للمعرفة وكوسيلة للتحقق من صحتها وكوسيلة للتنبؤ بالمستقبل ليست قاصرة على المسائل العلمية والتكنولوجية، بل يجب تعميمها في المسائل الاجتماعية والأخلاقية، وهو يعترف بأن الطريقة التجريبية قد تأخذ وقتًا طويلًا حتى تصبح وسيلة لتكوين الأفكار واختبارها والتحقق من صحتها في المسائل الاجتماعية والأخلاقية، وذلك لأن الناس –في نظره– لا يزالون يتعلقون بمعتقدات حددتها سلطة عليا؛ ليعفوا أنفسهم من مشقة التفكير المنطقي ومسؤولية تسيير نشاطهم الاجتماعي والأخلاقي حسب ما يقتضيه التفكير المنطقي السليم[1].

ج– أفكاره ومعتقداته المتصلة بطبيعة القيم الأخلاقية:

أما أفكاره المتصلة بالقيم الأخلاقية فإن من أهمها: إيمانه بأن القيم الأخلاقية هي أمور إنسانية تنبع من صميم الحياة التي يعيشها الإنسان على ظهر هذه الأرض، وهي ليست أخلاقًا متعالية تُفرض على الإنسان فرضًا من جهة عليا. وبهذا الاعتقاد يخالف ديوي الأديان السماوية والنظريات الأخلاقية القديمة التي تقوم على الأعلاء من شأن الحياة الروحية، وعلى فرض معايير أخلاقية تُعد مُثلًا عليا ينبغي على الإنسان أن يتسامى إليها ويتمثل بها، وعلى أن سعادة المرء هي في تصفية النفوس وتزكية العقل[2].

وهو يؤمن بأن المصدر الأساسي للقيم الأخلاقية هي الخبرة والتجربة. فالفرد عنده يكتسب قيمة الأخلاق وضميره الأخلاقي عن طريق خبرته وتفاعله مع البيئة المحيطة به

1 - John Dewey, Democracy and Education . New York: Macmillan Company, 1916-1918. Pp336-339.

2 – أحمد فؤاد الأهواني: جون ديوي (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٩) ص ص ١٢٩ – ٢١٣٠

مثلها في ذلك مثل بقية معارفه ومهاراته وعاداته واتجاهاته التي يكتسبها هي الأخرى عن طريق الخبرة.

والأحكام والقيم في نظر " ديوي " ليست مجرد انطباعات فردية ذاتية ولكنها أمور موضوعية تخضع للاختبار والتقييم، بل وللتعديل إن اقتضى الأمر ذلك وتطبق عليها الطريقة العلمية كما تطبق على أي ظاهرة طبيعية. وتظهر هذه الموضوعية واضحة في المبادئ التي تقوم عليها الديمقراطية كالعدل، والمساواة، وكرامة الفرد، واحترام شخصية الفرد وحريته، إلى غير ذلك من المبادئ الديمقراطية التي تظهر فيها الموضوعية وعدم التأثر بالعنصر الذاتي.

كما أكد "ديوي" على أن الأخلاق ظاهرة اجتماعية فأننا إذا شئنا تحسين الأخلاق فعلينا أن نُعَدِّل النظم الاجتماعية وأن نحسن تربية الفرد. وفي ذلك يقول ديوي:" إذا كانت موازين الأخلاق منحطة فذلك ناشئ من نقص التربية التي يتلقاها الفرد في تفاعله مع بيئته الاجتماعية[١].

وتطبيقًا منه لمبدأ "الواحدية" في مجال القيم الأخلاقية فإنه أنكر كثيرًا من التقسيمات والثنائيات والتمييزات التقليدية، وذلك مثل التمييز بين ما هو عالم مثالي أخلاقي وبين ما هو عالم واقعي، والفصل بين ما هو دنيوي أرضي وبين ما هو سماوي، والفصل بين ما يتعلق بقيم ومكاسب مؤقتة حادثة زائلة وبين ما يتعلق بأشياء وقيم أبدية خالدة، والفصل بين الطبيعة الجسمية والطبيعة الروحية للإنسان. لقد أنكر " ديوي " كل هذه التقسيمات الموجودة في الفلسفات التقليدية لأنها في نظره تخالف الواقع المتحدة جميع جوانبه والمتوقف بعضها على بعض.

هذه بعض معتقدات "ديوي" الفلسفية المتصلة بطبيعة الكون والإنسان وبطبيعة المعرفة وبطبيعة القيم الأخلاقية، وقد كان لهذه المعتقدات الفلسفية تأثير بالغ في أفكاره التربوية المتصلة بمعنى التربية وأهدافها.

١- المرجع السابق، ص ١٤٠.

المحور الثاني: الآراء والأفكار التربوية لابن القيم وجون ديوي

أ– الآراء والأفكار التربوية العامة عند ابن القيم. و تحديد أثرها في تربية عصره:

فيما يلي عرض موجز لبعض الآراء والأفكار التربوية لـ"ابن قيم" المتصلة بمعنى التربية وأهدافها ومناهجها وطرقها. **أفكاره المتعلقة بمعني التربية:**

فيما يتعلق بمعنى التربية: فيرى ابن قيم أنه يتناول معنيين: أحدهما علم المربِّي، فيجب عليه تفقده وصونه وحفظه كما يحفظ صاحب المال ماله، والآخر تربية الناس وتعليمهم به، وذلك بالتدرج بهم من صغاره إلى كباره. ومسؤولية التربية تقع على الآباء والمربّين والمسؤولين عن تربية الطّفل ورعايته، هذا فيما يتعلق بالتنشئة الاجتماعية في الأسرة، أما تربية الأمة كما يراها ابن قيم فهي مسؤولية الأنبياء والرسل –عليهم الصلاة والسّلام، والعلماء والمربّون ورثة لهم في هذا[1].

وأن للتربية غاية شريفة، ألا وهي تعبيد الناس لخالقهم، والمحافظة على فطرتهم ولها أهداف كثيرة متعددة منها: المحافظة على الصّحة البدنية للمربّي والاعتناء بأمر خلقه، وسلامة فكره، وكشف مواهبه، وتوجيهها[2]، أما وسائل هذه التربية فكثيرة منها: الرغيب في كسب العلم، وغرس حبّه في النفس والنهم الشّديد في تحصيله، وصرف الوقت في طلبه، وعدم الاكتفاء بشيء قليل منه، ومن وسائلها أيضًا التّدريب والتّعويد، والأخذ بأسلوب التّخلية والتحلية، ووجود القدوة الصّالحة، والملاحظة المستمرة للمربّى وعدم تمكينه من تعاطي ما يضره جسميًا وفكريًا وخلقيًا، وحمله على مزاولة العبادة. والتربية التي ينادى بها ابن قيم ربانية المصدر... لكن التربية لا تخلو من عوائق تعترض طريقها وتعرقل سيرها، من هذه العوائق الكسل والبطالة، وحب الدّعة والراحة، وفقدان القدوة الصّالحة الموجّهة، وإهمال المربَّى وعدم الاعتناء به، والسّماح له بمخالطة الأشرار من الأصحاب، وإطلاق العنان للنّفس في الشّهوات والملذّات، وعدم كشف القدرات وتوجيهها الوجهة الصّالحة فهذه العوائق وأمثالها

١– الفكر التربوي عند ابن قيم، مرجع سابق، ص: ٤٩٢

٢– المرجع نفسه، ص ٤٩٢

تعرقل التربية في سيرها، وتحرم الفرد والمجتمع ثمارها، وهذه الثمار منها ما يعود على المربِّي من النفع والخير والأجر بعد الموت صدقة جارية عليه، فالله –سبحانه وتعالى– يتجاوز عن سيّئاته ويعظم له حسناته، وهو في عبادة مستمرة طالما أنه يقوم بنشر العلم وتربية الخلق، وهو عدل ثقة بشهادة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– له، والمربّون وكلاء وأمناء على دين الله، وهذه لا شكّ مسؤولية عظمى وشرف وذخر لهم، وطالب العلم يكسب جرأة في الحق وثقة بالنّفس، ونجاة من الضّرر، وطلبه للعلم يكسبه نورًا في قلبه ويكون حيًّا عن الله واعيًا، ولديه بضاعة لا يعدلها من حطام الدّنيا شيء، وينال طالب العلم العز في الدّنيا والذخر في الآخرة، لأن العلم يزيد الشّريف شرفًا ويرفع من قدر الوضيع[١].

١. أفكاره المتعلقة بأهداف التربية:

إنّ غاية التّربية عند ابن قيم المحافظة على الفطرة وحمايتها من الانحراف، وتحقيق معنى العبودية لله عزّ وجلّ، لأنّ الله تعالى كما يقول ابن قيم: (...خلق الخلق لعبادته وهي الغاية منهم)، وفي هذا تحقيق لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢]، وهذه الغاية محبوبة لله –سبحانه وتعالى– لذلك أمر بها وجعلها الغاية من خلقه للجنّ والإنس، يقول رحمه الله: (.... إنّما خلق الخلق لأجل محبوبه ومأموره وهو عبادته وحده)[٣].

ومن أهداف التربية عند هذا المربّي غرس الأخلاق الفاضلة، ومحاربة الأخلاق السّيئة، وتحقيق السّعادة للنّشء ، وملاحظته أثناء الكلام وعند النّوم، ومخالطة الناس وتوجيهه في ذلك، وملاحظة لباسه وعدم تمكينه من لبس ما يحرم، وتنمية مواهبه وتوجيهها، والاهتمام بالتربية الدينية واعتبارها تربية أساسية لا يعفى منها أيّ مسلم، فهو يرى أنها تسير جنبًا إلى جنب مع التربية المهنية، ذكر ذلك في معرض حديثه عن التوجيه المسلكي للطّفل، فقال مخاطبًا وليه ومربّيه: (... وإن رآه بخلاف ذلك، وأنّه لم يخلق لذلك، ورأى عينه مفتوحة إلى

١– الفكر التربوي عند ابن قيم، مرجع سابق ص: ٤٩٢

٢–سورة الذاريات، الآية:٥٦.

٣– ابن القيم، عدة الصابرين،، ص:٥.

صنعة من الصّنائع مستعدًّا لها، قابلًا لها وهي صنعة مباحة نافعة للناس، فليمكنه منها، هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه، فإنّ ذلك ميسّر على كلّ أحد، لتقوم حجة الله على العبد، فإن له على عباده الحجّة البالغة كما له عليهم النّعمة السّابغة[1]، فيمكن القول بأن هدف التربية عند ابن قيم يتحدّد في غرضين أساسيين هما:

١- غرض ديني: بمعنى أن يكون الغرض من التعليم هو الوصول بالفرد إلى درجة الكمال الإنساني التي يستحقّ بها أن يكون خليفة الله في الأرض.

٢- غرض دنيوي: ويقصد به تحقيق السّعادة للإنسان في حياته الدنيوية والأخروية بتحصيل العل النّافع له ولمجتمعه. وعموما تهدف التربية عند ابن قيم إلى نمو الفرد نموًا كاملا من جميع النواحي، الجسمية والعقلية، والخلقية، وإعداده ليعيش في المجتمع ويشارك فيه بعمل أو بحرفة يختارها تتناسب مع استعداداته ومواهبه ورغباته سواء أكان عملًا ذهنيًا أو يدويًا[2].

٣- أفكاره المتعلقة بمناهج الدراسة:

إن لابن قيم أفكار تتعلق بالمناهج الدّراسية، ومنها: نداؤه لبناء منهج علمي أصيل، وهدم المنهج القائم على الأوهام والخيالات، والمبنى على البدع والضلالات، ويقول عن العلم المستمدّ من المنهج السّليم أنّه: (... العلم الموروث عن خاتم المرسلين ورسول رب العالمين، الذي لا نجاة لأحد إلاّ به، ولا فلاح له في داريه إلا بالتعلّق بسببه، الذي من ظفر به فقد فاز وغنم، ومن صرف عنه فقد خسر وحرم، لأنه قطب السعادة الذي مدارها عليه، وآخية الإيمان الذي مرجعه إليه، فالوصول إلى الله وإلى رضوانه بدونه محال، وطلب الهدى من غيره هو عين الضلال، وكيف يوصّل إلى الله من غير الطّريق التي جعلها هو سبحانه وتعالى موصلة إليه، ودالة لمن سلك فيها عليه، بعث رسول بها مناديًا، وأقامه على أعلامها داعيًا، وإليهم هاديًا فالباب عن السالك في غيرها مسدود وهو طريق هداه وسعادته مصدود، بل كلما ازداد كدحًا واجتهادًا، ازداد من الله طردًا وإبعادًا، ذلك بأنه صدف عن الصّراط

١- ابن قيم، تحفة المودود، ص:٢٤٣، ٢٤٤.

٢- ملامح الفكر التربوي، مرجع ساق، ص: ٦٩.

المستقيم، وأعرض عن المنهج القويم مع آراء الرجال، ورضي لنفسه بكثرة القيل والقال، وأخلد إلى أرض التقليد...)[١]؛ فيقول في بيان منهج أهل البدع: (....الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة)[٢]، أنهم: (...مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب، ومجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهّال الناس بما يشبهون عليهم)٣. وهذا المنهج الذي رسمه ابن قيم، من أهم خصائصه ما يأتي[٤]:

١- الاعتماد على الأدلة من الكتاب والسّنة.

٢- تقديم أقوال الصّحابة رضي الله عنهم على من سواهم.

٣- السعة والشمول.

٤- حرية الترجيح والاختيار.

٥- الاستطراد وطول النفس في الكتابة.

٦- مظهر الانطباع بتفهم محاسن الشريعة وحكمة التشريع.

٧- عنايته بعلل الأحكام ووجوه الاستدلال.

٨- الحيوية والمشاعر الفياضة بأحاسيس مجتمعة.

٩- الجاذبية في أسلوبه وبيانه.

١٠- حسن التّرتيب والسّياق.

١١- ظاهرة التّواضع والضراعة والابتهال.

١- ابن القيم، تهذيب سنن أبي داود، تحقيق أحمد محمد شاكر، ومحمد حامد الفقي سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، دار المعرفة، بيروت لبنان ١/٥، ٦.

٢- ابن القيم، أعلام الموقعين، ١/٩.

٣- المرجع نفسه، ١/٩.

٤- بكر بن عبد الله أبو زيد، التقريب لفقه ابن قيم الجوزية، القسم الأول، ص: ٧١.

١٢- التكرار[١].

والمنهج العلمي السليم هو الذي يعتمد على البراهين الساطعة والحجج والبينات، وهناك فرق يبيّنه ابن قيم بين الحجج والبيانات، فنقول الحجج الأدلة العلمية، والبينات جمع بينة، وهي صفة في الأصل يقال: آية بينة، وحجة بيّنة، والبينة اسم لكل ما يبيّن الحق، من علامة منصوبة أو أمارة أو دليل علمي)[٢]، وهذا يدل على أن البينة مفهومها أوسع من الحجة، لأن الحجة هي الدليل العلمي، والبيّنة كل ما يبيّن الحق من علامة أو أمارية أو دليل علمي[٣].

ويرى ابن قيم أن للعلم المدعوم بهذه الحجج وتلك البيانات سلطانًا على القلوب والأرواح أقوى من سلطان النفوذ والقوة والجبروت، لأنه يأسر القلوب بالدليل، أما سلطان اليد فإنما تنقاد به الأبدان دون القلوب والأرواح، فيقول رحمه الله: (....إن الله –سبحانه– سمى علم الحجة سلطانًا، لأنها توجب تسلّط صاحبها واقتداره فله بها سلطان على الجاهلين، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد، فإن الحجّة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنّما ينقاد لها البدن)[٤].

ويرى ابن قيم أن مهمة المربي تنقية العلم من شوائبه، يقول رحمه الله (... عن النبي – صلى الله عليه وسلم–: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"[٥].

كما يعتقد ابن قيم أنه ينبغي إعداد العلماء والمعلمين حتى يكونوا صالحين للعصر الذي وجدوا فيه، وبما يتفق مع احتياجات مجتمعاتهم في ذلك العصر، ولذلك ينصح بأن يكون

١- بكر بن عبد الله أبو زيد، التقريب لفقه ابن قيم الجوزية، القسم الأول، ص: ١٠٥.
٢-ابن قيم، المفتاح، ١٤٦/١.
٣- الفكر التربوي عند ابن القيم، ٤٣٨مرجع سابق.
٤- ابن قيم، مفتاح السعادة، ٥٩/١.
٥- ابن قيم، مفتاح السعادة، ٤٨/١ والحديث رواه (فر) للديلمي في مسند الفردوس من كنوز الحقائق، المناوي ١٩٧/٢، ط٤ سنة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤هـ، مكتبة ومطبعة/ مصطفى البابي الحلبي بمصر.

أول ما يتعلموه هو:

١- التاريخ الصّحيح.

٢- علم تكوين الأمم وارتفاعها وانحطاطها (علم الاجتماع حديثًا).

٣- علم الأخلاق.

٤- أحوال النّفس (علم النّفس).

٥- علم الحس والوجدان.

ونحو ذلك مما لا بد منه في معرفة مداخل الباطل إلى القلوب ومعرفة التوفيق بين العقل والحقّ (طرق التدريس)، وسبيل التّقرّب بين اللذة والمنفعة الدنيوية والآخروية، ووسائل استمالة النفوس عن جانب الشّر إلى جانب الخير، فإن لم يحصلوا علم، ذلك كله فوزر العامة عليهم، فليطلبوا العلم من سبيله الذي قام عليه السلف الصالح، والله كفيل بأن يمدهم بمعرفته[١].

٣. أفكاره المتعلقة بطرق التدريس وأساليبها وإجراءاتها:

بالنسبة لطريقة التدريس التي طبقها "ابن قيم" الّتي دعا إليها ومارسها من خلال أعماله التدريسية في مدرسته والتي دعا إليها في كتبه ورسائله فإنه يمكن تلخيصها في المبادئ التالية:

١- ما يفتتح به المعلم وما يختم به دروسه ومحاضراته:

أنّه من الأجدر للمعلم أن يفتتح دروسه بالحمدلة والثّناء على الله تعالى ثم الصّلصة على رسوله الله صلّى الله عليه وسلّم، لما في ذلك من مفتاح الخير، وسبب لسداد الرأي وإصابة القول، كما عليه أن يختتم محاضراته ودروسه بدعاء رسول الله الذي تعلمه أصحابه منه -صلّى الله عليه وسلّم- فيقول -رحمه الله-: (فحقيق بالمبلّغ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذي أقامه الله في هذا المقام أن يفتتح كلامه بحمد الله تعالى، والثّناء عليه،

١- أحلام، ملامح الفكر التربوي عند ابن قيم، مرجع سابق، ص:٧٦.

وتمجيده والاعتراف به بالوحدانية، وتعريف حقوقه على العباد ثمّ بالصّلاة على رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– وتمجيده والثّناء عليه، وأن يختمه أيضًا بالصّلاة عليه صلّى الله عليه وسلّم). بعد أن يدعو بالكلمات التي (...قلما كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقوم من مجلس حتّى يدعو (بها) ألا وهي.... "اللّهمّ اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مضار الدنيا"[١]

٢– مبدأ المساواة بين الطلبة:

يعطي ابن قيم العدل والمساوات في حقوق التعلّم والتّعليم حق للجميع، وأن يهتم المعلم بجميع طلبته، ولا يفضّل أحدًا منهم على الآخر تجنّبًا لما يمكن أن يحدث في نفوس التلاميذ، وان تيسير التدريس بصورة طيبة، وفي جوّ ودّ، يقول ابن قيم: (.... إنّ الطّالب المتعلّم إذا سبق غيره إلى الشّيخ ليقرأ عليه لم يقدم بدرسين إلاّ أن يكون كلّ منهم يقرأ درسين). وفي هذا حث لطلاب العلم على المبادرة إلى الدرس والمثابرة عليه، والاهتمام به وفيه أيضا توجيه للمعلم بأن لا يفضّل أحدًا من طلابه على غيره لكن لو كان هناك فروق بينهم ينبغي له مراعاتها، لأن الله ميّز بين البشر وجعل لكل إنسان من القدرات والإمكانات ما يختلف به عن غيره.

٣– مبدأ ضرورة مراعاة الفروق الفردية بين التّلاميذ:

من المبادئ الأساسية التي تقوم عليها طرق التدريس وإجراءاته عند ابن قيم مبدأ ضرورة مراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ، إنّ ما ذكرناه آنفًا من ضرورة عدل المعلم بين تلاميذه لا يمنع أن يراعي الفروق الفردية بين هؤلاء التلاميذ فيما يختلفون فيه، وهذا نوع من العدل وهو وضع كل شيء في مكانه المناسب، وهذا مما تدعو إليه التربية الحديثة كذلك، "وإذا لاحظ المعلّم سمات النّجابة على أحد تلامذته، وظهرت عليه علامات قبوله للعلم فينبغي أن يشجّعه على ذلك، وأن يستمع منه ما يجيب به عن مسائل العلم التي تخفى عليه هو"، يقول

١– الترمذي، مصيبات ٥/٥٢٨.

ابن قيم: (...إن بعض أهل العلم سئل مسألة، فقال: لا أعلمها، فقال أحد تلامذته: أنا أعلم هذه المسألة فغضب الأستاذ وهم به، فقال له: أيها الأستاذ لست أعلم من سليمان بن داود، ولو بلغت في العلم ما بلغت، ولست أنا أجهل من الهدهد، وقد قال لسليمان: (احطت بما لم تحط به)[١] فلم يغضب عليه ولم يعنّفه).[٢]

٤- تنظيم الطلاب حسب طبيعة الدّروس والنشاط التعليمي:

ودور المربي لا يقتصر على تلقين المعلومات والاكتفاء في الناحية التعليمية بجانبها النظري، بل إنه يشمل هذا ويشمل المتابعة العملية في تصرّفات طلابه وسلوكهم حتى أثناء جلستهم عند التعليم، يقول ابن قيم: (وأما مذهب طاهر فإنه يجلس متربعا متصدّرًا، ويأمر تلامذته بالجلوس على الرّجل اليسرى، والاتكاء على اليسار)[٣]، وهذا أثناء تعليمهم الرماية.

٥- مبدأ الطريقة الحوارية:

من الطّرق التي يمكن استنباطها من كتابات ابن قيم، هي طريقة الحوار، التي تعطي الطلبة حرية التّعبير في المشاركة في المحاضرة، يقول ابن قيم: (.....إن بعض أهل العلم سئل مسألة، فقال: لا أعلمها، فقال أحد تلامذته: أنا أعلم هذه المسألة فغضب الأستاذ وهمّ به، فقال له: أيها الأستاذ لست أعلم من سليمان بن داود، ولو بلغت في العلم ما بلغت، ولست أنا أجهل من الهدهد، وقد قال لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾[٤] فلم يغضب عليه ولم يعنّفه).[٥]

٦- مبدأ طريقة التّعاون:

مما يمكن استنباطه من الطرق الحديثة في كتابات ابن قيم ما يشير إلى مبدأ الطريقة

١- سورة النمل، الآية: ٢٢
٢- ابن قيم، المفتاح، ١٧٣/١
٣-ابن قيم، الفروسية، ص: ١٥٥.
٤- سورة النمل، الآية:٢٢
٥- ابن قيم، المفتاح، ١٧٣/١

التعاونية التي يفهم من كلامه إذ يقول " ....والإنسان حيوان ناطق، فالنّطق ذاتي له وهو مدني بالطّبع، لا يمكن أن يعيش وحده كما يعيش الوحش بل لا يمنكه أن يعيش إلا مع بني جنسه فلا بد أن يعرف بعضهم مراد بعض ليحصل التعاون فعلمهم الحكيم العليم تعريف بعضهم بعضا مراده بالألفاظ كما قال تعالى " الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان"[1] ثم استدل بآيات أخرى منها قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ ﴾ [2] وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [3]، ثم قال ابن قيم "فكانت حكمة ذلك التّعليم تعريف مراد المتكلم فلو لم يحصل له المعرفة كان ذلك إبطال لحكمة الله وإفساد لمصالح بني آدم وسلب الإنسان خاصيّته التي ميّزه بها على سائر الحيوان"[4]

٧- الاهتمام بحواس الإنسان في التعليم:

"فإن الوجود له مراتب أربعة احداها مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله (خلق) المرتبة الثانية الذهنية المدلول عليها بقوله ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ المرتبة الثالثة والرابعة ....اللفظية والخطية فالخطية مصرح بها في قوله ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [5] واللفظية من لوازم التّعليم بالقلم، فإن الكتابة فرع النطق والنّطق فرع التّصور فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها وانه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه فهو الخالق المعلم وكل شيء في الخارج فبخلقه وجد وكل علم في الذهن فبتعليمه حصل وكل لفظ في اللسان او خط في البنان فباقداره وخلقه وتعليمه وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته لا إله إلا هو الرحمن الرحيم"[6]

٨- مبدأ طريقة المحاضرة:

١- سورة الرحمن، الآية: ١-٤.

٢- سورة البقرة، الآية: ٣١.

٣- سورة العلق، الآية: ٥.

٤- ابن قيم، الصواعق المرسلة على المجهمية والمعطلة، دار العاصمة، الرياض، ط/١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، تحقيق د. علي بن محمد الدخيل الله. ٦٤١/٢.

٥- سورة العلق، الآيات: ١-٦.

٦- ابن قيم، مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٥٨/١.

إن من خلال بعض النصائح التي يقدمها ابن قيم للمتعلم يمكن الاستنباط منها بعض الطرق التدريسية الحديثة، حيث يرى أن طرق الحصول على العلم يستلزم أمور ست هي:

أ- حسن السّؤال. ب- حسن الانصات والاستماع . ج- حسن الفهم. د- الحفظ.

هـ- التعليم. و- العمل بالعمل ومراعاة حدود الله.

ويستشهد على ذلك بقول بعض السلف: إذا جالست العالم فكن على أن تسمع احرص منك على أن تقول، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[١]

وهنا نجد أنه لكى يحدث التعلم فلا بد من ثلاثة أمور هي:

١-سلامة القلب (العقل)، وصحة وقبوله.

٢-استخضار الذّهن ومنعه من الشّرود.

٣-إلقاء السّمع والاقبال على الذّكر.

لما تقدّم يمكن القول بأنه من القائلين بمناسبة طريقة المحاضرة وضرورتها؛ لأنّ فيها يسمع المتعلّم إلى أستاذه ويستحضر ذهنه.

٩-الاهتمام بوسائل العلم والتعلّم وآلاته:

لابن قيم اهتمامات في كتاباته ببعض وسائل التعلم ، حيث كان يشرح أهم وسائل وآلات العلم والتّعلّم " فيقول الله سبحانه وتعالى عندما يذكر الإنسان بنعمه العديدة عليه، يكون أهمّها آلات العلم والتّعلّم، فيذكر الفؤاد والسّمع والأبصار، ولشرف هذه الأعضاء خصّها الله سبحانه وتعالى بالذكر في السؤال عنها فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ

١- سورة ق، الآية: ٣٧

كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾"[1]

٤. التأثير الذي أحدثته أفكار "ابن قيم" في تربية عصره:

فيما سبق كان عرضًا لبعض آراء وأفكار "ابن قيم" الفلسفية التي آمن بها بالنسبة لمعنى التربية وأهدافها ومناهجها وطرقها، منها أنّه يرى في مفهوم التربية أنّه يتناول معنين، أولهما علم المربّي الذي يجب تفقده وصونه وحفظه، وثانيها تربية الناس وتعليمهم به، حيث يؤكّد أن مسؤولية التربية تقع على الآباء والمربّين، ومسؤولية تربية الأمة على الأنبياء والرسل –عليهم السلام– وكذلك العلماء والمربّون، وأن غاية التربية تكمن في تعبيد الناس لخالقهم، والمحافظة على فطرهم، و المحافظة على الصّحة البدنية للمربّي والاعتناء بأمر خلقه، وسلامة فكره، وكشف مواهبه، وتوجيهها.

كما يرى وكان ينادي في حياته بضرورة تطبيق المنهج العلم الأصيل القائم على الراهين والساطعة والحجج والبينات، ودعوته لهدم المناهج السابقة القائمة على الأوهام والخيالات، والمبنية على البدع والضلالات، ولعلّ جوهر ما ألّف عليها ابن قيم معظم كتبه على هذا النّهج والدعوة إلى مقاطعة المناهج غير الأصيلة التي لا يرجع نفعه للمجتمع.

كما كان مما تستنبط من تراثه بعض أفكاره المتعلقة بطرق تدريس المختلفة وأساليب وإجراءات عديدة، مثل توجيهه إلى ما ينبغي المعلم أن يفتح به درسه من ذكر الله –سبحانه وتعالى– والصلاة على رسول الله، وكما ينبغي أن يختم به من دعاء، ونداء إلى مبدأ المساوات بين الطلبة، والاهتمام بفروق الطلبة الفردية من احتياجات خاصّة، وضبط الفصل الدراسي وتنظيمه اللائق، والإستفادة من الطرق الحوراية التي تسكب الطلبة مهارة التّواصل بين الآخرين، وطريقة العروض التي يمكن المتعلم من عرض وتدريس مصغّر يقدمه على زملائه الطلبة في حضرة أستاذهم. ومبدأ التعاون الذي يعطي المتعلمين فرصة تبادل الخبرات فيما بينهم، ويتفاعلون مع بعض. وضرورة الاهتمام بحواس الإنسان في التّدريس.

١– سورة الإسراء، الآية: ٣٦ .

ولما سبق من آراء واتجاهات نلحظ أن لابن قيم تأثير في مجتمعه، حيث كان له أنصار يتبعون ما يرسمه من آراء واتجاهات فريدة، وقد طبّق آرائه في مدرسته بالصدرية وأم بالجوزية مدة طويلة، وله تلاميذ كانوا متأثرين بمناهجه وأفكاره التربوية، ومن أبرز هؤلاء ابن كثير صاحب البداية والنهاية، وابن رجب، صاحب كتاب الذيل على طبقات الحنابلة، وابن عبد الهادي، وغيره من الفضلاء، وابنه عبد الله، وشمس الدّين محمد بن عبد القادر النابلسي، صاحب مختصر طبقات الحنابلة.

ب– الآراء والأفكار التربوية العامة عند جون ديوي. و تحديد أثرها في تربية عصره:

فيما يلي عرض موجز لبعض الآراء والأفكار التربوية لـ"جون ديوي " المتصلة بمعنى التربية وأهدافها ومناهجها وطرقها.

٢.أفكاره المتعلقة بمعني التربية:

فيما يتعلق بمعنى التربية وبالنسبة لطبيعة العملية التربوية يؤمن جون ديوي بأن التربية هي الحياة نفسها وليست مجرد إعداد للحياة، وبأنها عملية نمو، وعملية تعلم، وعملية بناء وتجديد مستمرين للخبرة، وعملية اجتماعية. ولكي تكون التربية عملية حياة لابد أن ترتبط بشؤون الحياة، ولكي تكون عملية نمو وعملية تعلم واكتساب للخبرة لابد أن تراعي فيها شروط النمو وشروط التعلم وشروط اكتساب الخبرة، ولكي تكون عملية اجتماعية لابد أن تتضمن تفاعلًا اجتماعيًا ولابد أن تتم في جو ديمقراطي وجو اجتماعي صالح[1].

ولإيمانه بهذه المعاني للتربية فقد أعطى أهمية كبرى لعامل الخبرة في العملية التربوية وآمن بأن التربية الصحيحة إنما تتحقق عن طريق الخبرة، "وقد ذهب إلى وضع مبدأ جديد للتربية استلهمه من شعار الديمقراطية المشهور، وهو التربية للخبرة ، وعن طريق الخبرة، وفي سبيل

1- Adolph E Meyer, the Development of Education in the Twentieth Century.p.7.

الخبرة "؛ لأن التربية عملية ترق في نطاق الخبرة وعن طريقها وفي سبيلها[1].

ولكن الخبرة التي لها هذه القيمة التربوية عند "ديوي" هي الخبرة الصحيحة النافعة التي تتضمن تفاعلًا متعدد الجوانب بين الفرد وبيئته وتساعد الفرد على النمو المستمر للفرد وعلى إحداث التغييرات المرغوب فيها في سلوكه.

ومن المقومات الأساسية للخبرة الصالحة في نظر "ديوي" هو اتسام الخبرة بسمة الاستمرارية، واشتمالها على التفاعل الصحيح. ولكي تتصف الخبرة بالاستمرارية فإنها يجب أن تكون متصلة بالخبرات السابقة وممهدة ومسهلة لخبراته اللاحقة. وإذا كانت التربية نموًا وترقيًا من الناحية الجسمية والفكرية والخلقية، فلا غرابة أن تقوم على مبدأ استمرار الخبرة[2]. والخبرة الصحيحة بعد هذا يجب أن تكون نتيجة التفاعل بين الفرد وبيئته، أي نتيجة للتفاعل بين مطالب الفرد وحاجاته ورغباته ودوافعه النفسية وبين الظروف والعوامل الخارجية المحيطة به. والخبرة الصحيحة لا تقف عند مجرد التفاعل بين العوامل الداخلية والخارجية فقط، بل تتعداه إلى محاولة التوفيق والتنسيق بين هذين النوعين من العوامل. والتربية الحديثة تميل إلى تأكيد العوامل الخارجية والعوامل الداخلية معًا، وذلك على خلاف التربية القديمة التي تؤكد أهمية الظروف الخارجية التي تتدخل في ضبط الخبرة وتهمل إلى حد كبير العوامل النفسية الداخلية للفرد، وبذلك لم يتحقق في خبرات التربية التقليدية مبدأ التفاعل بالمعنى الصحيح، لأن التفاعل الصحيح يتضمن تأكيد النوعين من العوامل كما يتضمن التوفيق والتنسيق بينهما[3].

٣. أفكاره المتعلقة بأهداف التربية:

بالنسبة لأهداف التربية وأغراضها فإن "جون ديوي" لم يسلك السبيل الذي سلكه الكثير من المربين في محاولتهم تحديد الأهداف العامة والخاصة للتربية، بل ذهب إلى أن التربية

١- أحمد فؤاد الأهواني، جون ديوي، ص ٥٢.

٢- جون ديوي: الخبرة والتربية، ترجمة محمد رفعت رمضان ونجيب اسكندر.

٣- المرجع السابق نفسه، ص ص ٣٥ – ٣٩ .

ليس لها أي هدف خارج عن عملية التربية نفسها. فالهدف الأعلى للتربية –عنده– هو تحقيق استمرار التربية، أو بعبارة أوضح أن هدف التربية هو أن تساعد الفرد على أن يستمر في تربيته وبالتالي في نموه وتعلمه وتكيفه مع بيئته وحياته، حيث أن عملية التربية عنده مرادفة لهذه الأمور كلها، فالتربية عنده ينبغي إلا تكون لها أهداف مفروضة عليها من الخارج؛ لأن الأهداف المفروضة من الخارج لا تمثل أهداف التلاميذ الحقيقية ولا تنبع من خبراتهم ونشاطاتهم. والأهداف الحقيقية للتلميذ هي ما حددها بنفسه، أو على الأقل اشترك في تحديدها في ضوء خبراته السابقة وحاجاته[1].

وفي نظر "جون ديوي" أنه "ليس في فلسفة التربية التقدمية نقطة أكثر وجاهة من تأكيدها أهمية اشتراك المتعلم في تكوين الأهداف التي توجه نواحي نشاطه في عملية التعلم، كما أنه ليس هناك نقص في التربية التقليدية أكبر من إخفاقها في الحصول على تعاون التلميذ تعاونًا إيجابيًا في بناء الأهداف التي تتضمنها دراسته. والهدف الحقيقي هو الذي يبدأ بنزعة، والحيلولة دون إشباع النزعة إشباعًا مباشرًا يحيلها إلى رغبة. ومع ذلك فليست النزعة أو الرغبة في حد ذاته هدافًا، لأن الهدف غاية منظورة، أي أنه يتضمن التبصر بالعواقب التي سوف تترتب على العمل وفق النزعة. والتبصر بالعواقب يتضمن اعمال الذكاء، وهذا يتطلب أولًا ملاحظة الظروف والملابسات الموضوعية، ذلك بأن النتائج لا تترتب على مجرد وجود نزعة الفرد إلى عمل بسيط كالمشي، لا يتم إلا بالصلة الفعالة بالأرض التي يقف عليها... فممارسة الملاحظة شرط من شروط تحول النزعة إلى هدف.

على أن الملاحظة وحدها غير كافية، بل لا بد لنا من أن نفهم مغزى ما نرى ونسمع ونلمس، وهذا المغزى يتكون من النتائج التي سوف تترتب على العمل حسب ما نراه، فقد يرى الطفل بريق اللهب فينجذب نحوه محاولًا والوصول إليه، وليس مغزى اللهب حينئذٍ في بريقه بل في قدرته على أن يحرق، وهي النتيجة التي سوف تترتب على لمسه، ونحن لا

1 - John Dewey, Democracy and Education . 1961,pp. 104-110.

نستطيع إدراك النتائج إلا بسبب وجود الخبرات السابقة١.

وهكذا يتبين لنا أن تكوين الهدف عند " جون ديوي " ليس بالعملية السهلة بل هو عملية عقلية معقدة تتطلب وجود دافع ورغبة لدى المتعلم، كما يتطلب ملاحظته للظروف والملابسات الموضوعية المحيطة به، ومعرفته لما حدث في الماضي فيما يشبه هذا الموقف الذي بين يديه، ثم تأتي عملية الربط بين ما لاحظه وبين ما استرجعه ومحاولة ترجمة الهدف إلى خطة وطريق العمل.

ويذكر "جون ديوي" في كتابه "الديمقراطية والتربية" ثلاثة موازين للأهداف التربوية الحسنة، وهي كالآتي٢:

– الميزان الأول: يتمثل في أن الهدف أو الغرض التربوي يجب أن يؤسس على أوجه النشاط الداخلي للتلميذ المراد تربيته وعلى حاجاته.

– الميزان الثاني: يتمثل في إمكانية ترجمة الهدف إلى أعمال وخبرات دراسية تقوم على نشاط المتعلم وتساعد في تفتيح مواهبه واستعداداته.

– الميزان الثالث: يتمثل في وجوب اعتبار الأهداف بأنها أمور تقريبية وليست أمورًا نهائية وفي وجوب الربط بين الأهداف ووسائلها.

وبالرغم من أن "ديوي" لم يرى للتربية غرضًا غير تحقيق نفسها، فإن المتصفح لكتاباته، لا سيما كتابه "الديمقراطية والتربية" يجد فيها من العبارات ما يدل دلالة واضحة على اعترافه ببعض الأهداف الفردية والاجتماعية للتربية، ولا تخرج الأهداف التي اعترف بها عن هدف استمرار الخبرة وتجددها، وهدف تحقيق النمو المتكامل للفرد، وهدف تحقيق الكفاية الاجتماعية، وهدف تطوير المجتمع وتحسينه عن طريق خلق الفرد الصالح الذي اكتملت لديه نمو شخصيته وتربت لديه المعارف والمهارات والاتجاهات اللازمة لتحقيق الكفاية الاجتماعية.

١– جون ديوي: الخبرة والتربية، مرجع سابق، ص ص ٦١ – ٦٢ .

2 - John Dewey, Democracy and Education, op.cit ,pp. 104-110.

ومن الأهداف والأغراض التربوية التي وردت الاشارة اليها في كتابه "الديمقراطية والتربية" ما يلي:

مساعدة الفرد على النمو الكامل المتكامل لشخصيته وعلى تفتح استعداداته وطاقاته وتنميتها، لأن التربية في نظره لا تعدو ان تكون عملية نمو وعملية تفتح لاستعدادات الفرد.

مساعدة الفرد على التكيف المستمر مع بيئته الاجتماعية والطبيعية وتزويده بالخبرات التي يتطلبها هذا التكيف.

إعداد الفرد للحياة المستقبلية، لكن من غير إهمال لمتطلبات حياته الحاضرة. وهذا الغرض يقتضيه تفسيره للتربية بانها عملية نمو، لأن هذا التفسير يتطلب مراعاة الامكانيات والمتطلبات الحاضرة والنظر إليها على أنها متطورة في تقدم مستمر، كما يتطلب أيضًا العمل على إعداد الفرد لحياة مستقبلية وجعله مسيطرًا على متطلبات الحياة المتأخرة[١].

إعادة بناء الخبرة الاجتماعية وتحسين المجتمع وتطويره. فكما أن التربية في نظره عملية اجتماعية تهدف إلى تطوير المجتمع وتحسينه.

ولقد رفض "ديوي" الظن القائل بأن المدرسة يجب أن تتكيف مع الأوضاع السائدة في المجتمع، ويجب ألا تحاول تطوير المجتمع وإعادة بنائه وتنظيمه، ففي نظره ان الذين يعتقدون في صحة هذا الظن الخاطئ المتعلق بوظيفة المدرسة في المجتمع قد فاتهم إدراك أن من أبرز مميزات المجتمع الديمقراطي هو الإيمان بالتطور والتحسين المستمرين واعتبار المدرسة وسيلة من أهم الوسائل لإصلاح المجتمع وتحسينه وإعادة بنائه[٢].

٥. أفكاره المتعلقة بمناهج الدراسة:

انتقد بشدة "جون ديوي" المفهوم التقليدي للمناهج الذي يقوم على تقسيم المنهج إلى

1- Ibid., pp. 1-123.

2- John Dewey," Can Education SHARE in Social Reconstruction", the Social Frontier, Vol. 1 No.1, October, 1934.

مواد منفصلة وعلى ترتيب هذه المواد ترتيبًا منطقيًا قد يتفق مع عقلية التلاميذ الصغار، لأن استعدادات الطفل العقلية في سنه المبكرة وطبيعة تكوينه العقلي لا تتفق مع هذا الترتيب ولا ذلك التقسيم.

وليس المركز الحقيقي للمنهج في نظره هي المواد الدراسية المنفصلة المستقلة عن بعضها البعض، بل مركزه الحقيقي هي نشاطات الطفل الذاتية وخبراته. فمن هذه النشاطات والخبرات يتكون المنهج وبها يجب أن تبدأ المدرسة. وقد حاول "ديوي" أن يطبق هذا المبدأ في منهج مدرسته الابتدائية؛ حيث جعل الأطفال في هذه المدرسة يبدءون بأوجه النشاط التي يعهدونها في حياتهم المنزلية وفي حياتهم العامة لمجتمعهم وهي الأنشطة المتصلة بالحصول على المأكل والملبس والمأوى، وذلك كالطبخ والخياطة، وبناء البيوت، وما يتصل بها من أنشطة فرعية وما يحتاجه انجاز هذه الأنشطة من مواد غذائية وقطنية وخشبية. وهذه الأنشطة التي يتكون منها منهج السنوات الأولى من المرحلة الابتدائية لا ترمي فقط إلى إحداث التناسق والترابط بين الوظائف الجسمية، بل ترمي أيضًا إلى حفز القوى العقلية وربطها بأعمال وظيفية. ومن الأمور التي أكدها "ديوي" في منهج مدرسته الابتدائية تعلم الحساب، والموسيقى، والفن، والنجارة، والطبخ، والخياطة، والعلوم، والجغرافيا، والتاريخ، والقراءة، والكتابة، والبستنة، ولكن كل هذه الأمور لم تدرس كمواد منفصلة مستقل بعضها عن بعض ، بل كانت تدرس عرضًا عن طريق ربطها بمواقف ومشاكل للحياة[1].

وقد كانت الطريقة المتبعة في تنظيم خبرات المنهج وتدريسها هي طريق المشروعات، ولذا كان يمكن للتلميذ عن طريق أي مشروع دراسي أن يكتسب الكثير من الحقائق والخبرات والمهارات التي يمكن أن تكون منتمية إلى عدد كبير من المواد الدراسية التقليدية.

ونحن إذا ما دققنا النظر في أوجه النشاط والدراسات التي تضمنها منهج مدرسة "جون ديوي" الابتدائية فإننا نجدها تدخل تحت ثلاث فصائل أساسية:

1- Frederick Eby, the Development of Modern Education. 1960,pp.624- 626.

الفصيلة الأولى: تتكون من أوجه النشاط والأعمال اليدوية التي تدور حول عدد من المهن الاجتماعية السائدة، وذلك كالطبخ، والخياطة، والغزل والحياكة، وما إلى ذلك. ولهذا النوع من أوجه النشاط والأعمال قيمة جسمية وعقلية. فهو كما يساعد بصورة مباشرة على تدريب اليد والعين والأذن، فإنه يساعد أيضًا بطريقة غير مباشرة على تدريب انتباه التلميذ وخياله، وقدرته على الحكم. فالمهنة تجهز الطفل بدافع حقيقي وتعطيه خبرة مباشرة وتهيئ له الاتصال المباشر بالأمور الواقعية.

الفصيلة الثانية: من الأنشطة والدراسات التي تضمنها منهج المدرسة تتصل بالمواد الدراسية التي تساعدنا على فهم الحياة الاجتماعية، وذلك كالتاريخ والجغرافيا والعلوم والفن. ولكن بالرغم من اشتمال المنهج على ما يتصل بهذه المواد من خبرات وأنشطة فإنه لا وجود لمواد منفصلة مستقلة تحمل هذه العناوين في المنهج.

الفصيلة الثالثة: لأنشطة منهج تلك المدرسة تشتمل على الدراسات والخبرات التي من شأنها أن تمكن التلميذ من تنمية قدرته على الاتصال والبحث العقليين، وذلك كالدراسات المتصلة بالقراءة والكتابة والحساب، وهذه الدراسات كسابقتها في الفصيلة الثانية لم توجد في منهج مدرسة "ديوي" كمواد منفصلة مستقلة بعضها عن بعض بل وجدت متصلة بمواقف الحياة و بأعمال التلميذ اليدوية.

وكثير من المبادئ التي نادى بها "ديوي" بالنسبة لمنهج المدرسة الابتدائية قد نادى بها أيضًا بالنسبة لمنهج المرحلة الثانوية. وهناك نوعان من الموازين التي يجب أن تتحكم في اختيار وتنظيم محتويات منهج المرحلة الثانوية عنده هما: خصائص طلاب هذه المرحلة، والظروف الاجتماعية والثقافية في كل موقف تعليمي. ووظيفة المدرسة الثانوية عنده هي أن تمكن الطالب من الاستمرار في توسيع دائرة ثقافته العامة التي بدأ بها في المرحلة الابتدائية، ولا تفرض عليه دراسة تخصصية ضيقة، لأن الدراسات التخصصية يجب —في وجهة نظره— ان تكون من وظيفة التعليم الجامعي.

٦. أفكاره المتعلقة بطرق التدريس:

بالنسبة لطريقة التدريس التي طبقها "جون ديوي" في مدرسته والتي دعا إليها في كتبه ومقالاته التربوية؛ فإنه يمكن تلخيصها في المبادئ التالية:

١. الطريقة الصالحة في نظر "ديوي" هي التي تساعد التلميذ على إيقاظ قواه واستعداداته العقلية وتعوده على الاستقلال والاعتماد على النفس والتفكير المنطقي، وحب التعاون، وتشجعه على الإصالة والخلق والإبداع، وتدفعه إلى الحركة والنشاط الهادف.

٢. تقوم طريقة "ديوي" التدريسية على مبدأ ضرورة مراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ وضرورة مراعاة ميولهم ودوافعهم الطبيعية ووجوب استغلال هذه الدوافع والميول في جذب انتباههم ودفعهم إلى النشاط الذاتي الخلاق، ومن الميول والدوافع التي يجب على المربي ان يحسن استغلالها في العملية التربوية الميل إلى الحركة والنشاط ، والميل إلى اللعب، والميل إلى التعبير عن الذات بالقول والعمل والميل إلى البناء والتركيب، والميل إلى البحث. ومما قاله " ديوي" في شرحه للقيمة التربوية لبعض الميول والدوافع ما يلي: "فالأطفال جميعًا يرغبون في التعبير عن أنفسهم باللون والشكل؛ فإذا أجزت الظهور لهذا الولع بسهولة، وذلك بالسماح للطفل بالانطلاق بصورة غير محدودة فلا يحصل له من النمو إلا ما كان عرضيًا، ولكن دع الطفل يعبر أولًا عن الدوافع التي في نفسه ثم الفت انتباهه إلى ما يصنع وإلى ما يحتاج إلى صنعه بالنقد والأسئلة والاقتراحات. فهنا ستكون النتيجة شيئًا مختلفة تمامًا... وغريزة اللغة أسهل شكل من التعبير الاجتماعي لدى الطفل ومع ذلك فهي عظيمة، بل لعلها أعظم جميع المصادر التربوية، وتوجد كذلك غريزة الصنع، وهي الدافع إلى البناء الذي يدفع إلى أن يصنع ويجد تعبيرًا عما يصنعه في اللعب والحركة والإشارة والتخيل بالدرجة الأولى، وتتطلب غريزة الصنع هذه منفذًا لجعل الأشياء ذات أشكال مفهومة وتجسيدات ثابتة، وليس للطفل مقدار وافر من غريزة البحث المجرد"[١]، والظاهر أن غريزة البحث تنمو من تركيب دافع البناء

١ – جون ديوي: المدرسة والمجتمع، ترجمة أحمد حسن الرحيم، ص ٨٣.

أو الإنشاء مع الدافع إلى المحادثة، وليس من فرق لدى الأطفال الصغار بين العلم التجريبي والعمل المنجز في دكان نجار.. وفي نظر " ديوي" أن مراعاة ميول التلاميذ ودوافعهم ورغباتهم لا يعني بأي حال من الأحوال ترك هذه الميول والرغبات بدون توجيه ولا تنظيم. وواجب المدرس في نظره أن يوجهها ويعمل على تنظيمها وفق خطة مرسومة لتحقيق أهداف تربوية مرغوب فيها.

٣. ومن المبادئ التي تقوم عليها طريقة "ديوي" أيضًا إيمانه بوجوب الربط بين خبرات التلميذ داخل المدرسة وخارجها، وتأكيده لمبدأ ضرورة الربط بين خبرات التلميذ داخل المدرسة وخارجها، وتأكيده لمبدأ ضرورة الربط بين المعرفة النظرية والعمل، وقد تحدث بشيء من الاطناب عن هذين المبدأين في الفصل الثالث من كتابه: "المدرسة والمجتمع" ومما جاء في هذا الفصل قوله: "فالتلف أو الضياع الكبير في التربية- من وجهة نظر الطفل – متأت من عجزه عن الانتفاع بما يكتسب من الخبرات خارج محيط المدرسة انتفاعًا تامًا وحرًا يجري داخل المدرسة نفسها. وهو في الوقت ذاته يرى نفسه عاجزًا استعمال ما يتعلمه من المدرسة في حياته اليومية. وهذه هي عزلة المدرسة، انها انعزال عن الحياة...[١]

٤. الإعلاء من شأن الخبرة المباشرة، والإيمان بأن التربية الصحيحة إنما تتحقق عن طريق الخبرة الصالحة. ولا تكون الخبرة تربوية مالم تهدف إلى معرفة المزيد من الحقائق وإدراك المزيد من الأفكار، وإلى ترتيب هذه الحقائق والأفكار ترتيبًا أفضل وأحسن نظامًا من ترتيبها الأول . وليس حقًا أن مبدا التنظيم غريب عن الخبرة، وإلا أصبحت الخبرة مفككة إلى درجة تؤول معها إلى الفوضى[٢] ".

٥. الطريقة العامة التي يوصي "ديوي" المدارس باتباعها في تنظيم خبرات تلاميذه وفي تدريسه هي طريق المشروع (Project Method) وطريقة حل المشكلات (Problem Solving)، وقد عرف بعضهم المشروع بأنه: موقف تعليمي تتوافر فيه الاعتبارات التالية:

١- المرجع السابق نفسه، ص ٨٣.

٢- جون ديوي: الخبرة والتربية، مرجع سابق، ص ص ٧٧ – ٨٠ .

– وجود مشكلة أو مشكلات تنبع من ميول التلاميذ، ويحسون بها مباشرة، أو بعد إثارتها وإشعارهم بها.

– وجود غرض واضح محدد في أذهان التلاميذ، يدفعهم برغبة شديدة إلى حل تلك المشكلات.

– القيام بنشاط متعدد الألوان، عقلي جسمي اجتماعي، من جانب التلاميذ، ولهذا النشاط خطة قابلة للتنفيذ فعلاً وتعمل على سد حاجة الموقف وتحقيق الغرض.

يجب أن يسود الموقف التعليمي في جميع مراحله جو اجتماعي ديمقراطي طبيعي، يؤدي إلى النمو الفردي والنمو الاجتماعي.

– المعلومات والنظريات والحقائق تأتي عرضًا ومتقطعة، كلما دعت الضرورة إليها في تفسير موقف أو لتوضيح مشكلة.

– مجال التعليم في هذا الموقف التعليمي غير قاصر على الفصل، بل يمتد إلى خارج الفصل: في فناء المدرسة، ويمتد إلى خارج المدرسة في صورة زيارات ورحلات ومعسكرات.

وأهم ما يتميز به المشروع هو اهتمامه بوضع ميول التلاميذ ونشاطهم في المرتبة الأولى، ووضع المعلومات والحقائق في المرتبة الثانية، والنظر إليها على أنها وسيلة وليست غاية في حد ذاتها.

والمراحل الأساسية التي يسير المشروع على هديها هي: اختيار المشروع، وتحديد الغرض منه، ورسم خطته، وتنفيذه، والحكم عليه١.

أما طريقة حل المشكلات التي ينادي "ديوي" باتباعها فإنها تقوم على المبدأ القائل: ان التعلم الجيد يقوم على وجود مشكلة تهم التلميذ وتتصل بحياته وحاجاته: فتحفزه إلى القيام بنشاط، بُغية الوصول إلى حل لهذه المشكلة. وقد يكون هذا النشاط عشوائيًا، وقد يكون

١– أبو الفتوح رضوان وآخرون: المدرس في المدرسة والمجتمع (القاهرة: مكتبة الإنجلو المصرية، ١٩٦٠) ص ص ١٥٧ – ١٦٢.

قائمًا على التبصر والتوجيه، بحيث يغدو التلميذ على بينة من المشكلة فيحددها، ويعدد الاحتمالات المختلفة التي قد تقود إلى حلها (فرض الفروض) ثم يحاول وزن كل احتمال بالتجربة أو سؤال الخبراء أو الرجوع إلى المصادر لجمع الأدلة أو الأسانيد. ويخرج من هذا كله بقبول احتمال ورفض آخر على اعتبار أن ذلك يوصل لحل المشكلة.

٧. التأثير الذي أحدثته أفكار "جون ديوي" في تربية عصره:

فيما سبق كان عرضًا لبعض آراء وأفكار "جون ديوي" الفلسفية التي آمن بها بالنسبة لمعنى التربية وأهدافها ومناهجها وطرقها، وهي لا تخلو من نقاط القوة والجدة، ومن مظاهر القوة فيها هو رفضها لأساليب التربية القديمة التي تقوم على أساس حشو الذهن بالمعلومات، وإعلاؤها من شان الخبرة العملية والنشاط الذاتي للتلميذ في العملية التعليمية، واعتبارها للتربية على أنها عملية نمو للفرد والمجتمع على حد سواء، ودعوتها إلى وجوب ربط المدرسة بالحياة العامة وبالأعمال الانتاجية في البيئة، وإلى وجوب التعاون بين المدرسة والبيت، وإلى وجوب التوفيق بين أعمال الطفل الاجتماعية وبين أعمال المدرسة، وإلى وجوب تحرير التلميذ من كثير من الضغوط والتقييدات التي كان يخضع لها في ظل التربية التقليدية.

وقد كان لأفكار "ديوي" تأثيرها البالغ في تربية هذا القرن لا في أمريكا وحدها بل كافة أنحاء العالم المتقدم الذي تسربت إليه مبادئ التربية. ويظهر تأثير هذه الأفكار واضحًا جليًا في غالب الحركات والطرق التربوية التي ظهرت في أمريكا بين الحربين العالميتين، وذلك كحركة التربية التقدمية، وحركة منهج النشاط ، والمنهج المحوري، وكطريقة "دالتن" وطريقة "ونتيكا" وطؤيقة المشروع.

ومن المربين المحدثين الذين تأثروا إلى حد كبير بأفكار "جون ديوي" هم "وليام كلباتريك" و "بويد بود" و "جون كاونتس" و "جون تشايلدز" و "هارولد رج" و "كاريلتون".

ولكن بالرغم من التأثير الواسع الذي أحدثته أفكار ونظريات "ديوي" التربوية في تربية القرن العشرين وفي أفكار كثير من مربي هذا القرن المتحررين والتقدميين فإنها واجهت

معارضة شديدة من قبل كثير من المربين المحافظين ومن أتباع المذاهب والنزعات التربوية التقليدية، وذلك كأتباع المذهب الواقعي، واتباع المذهب المثالي، وأتباع الحركة الأساسية. وقد كانت معارضة أتباع هذه المذاهب مبنية على أساس أنهم وجدوا في أفكار "ديوي" وفي أفكار غيره من البرجماتيين والتقدميين ما لا يتفق مع المبادئ التي تقوم عليها المدارس الفلسفية التي ينتمون إليها. وقد انضم إلى هؤلاء المذهبيين في نقد نظريات" ديوي" كثير من المحافظين الذين يميلون إلى الأساليب التربوية القديمة التي تربوا عليها ويرون أن المبادئ التربوية التقدمية هي السبب في ضعف مستوى التعليم.

وقد انبرى كثير من الكتاب التربويين دفاعًا عن "ديوي" من الهجمات والانتقادات التي وجهت إليه منذ ظهر على العالم بأفكاره التربوية التحررية في أواخر القرن الماضي. وقد كان من بين الذين دافعوا عن "ديوي" من الكتاب التربويين المحدثين " إدواردباور" و " جون واين" و " ريتشارد ميلير".

ونحن لا نريد أن نستطرد في ذكر النواحي التي اعتمد عليها الكتاب التربويين المدافعون عن فلسفة" ديوي "التربوية. وفي نظرنا أنه مهما كان إخلاص المدافعين عنه ومهما كانت قوة حجتهم في هذا الدفاع فإن أحدًا منهم لا يستطيع أن ينكر أن "ديوي" نادى بتربية الشخصية ككل، وأعطى أهمية كبرى لميول التلاميذ وحاجاتهم الحاضرة في عملية اختيار وتنظيم خبراتهم المدرسية، ونظرًا إلى الطريقة التي تدرس بها المادة على أنها أهم من محتويات المادة نفسها، إلى غير ذلك من النواحي التي لا تعتبر مقبولة من قبل المحافظين الداعين إلي التركيز على التربية العقلية وعلى المادة الدراسية. ولكن ما ذهب إليه " ديوي " من التجديدات له ما يبرره من نتائج علم النفس ومن مقتضيات العالم المتغير والمتطور سريعًا الذي عاش فيه.

المحور الثالث: أوجه الاتفاق والاختلاف بين الآراء والأفكار التربوية لابن القيم وجون ديوي.

– من ناحية الحدود الزمنية:

أن تحدثنا عن ابن القيم في بحثنا الحالي عن الفكر التربوي الإسلامي؛ فإن الحدود الزمنية تعود إلى القرن الثالث عشر الميلادي، غير أن الفكر الغربي كان يمشي آنذاك في عصور الظلام إلى أن بدأت أفكار بعض المفكرين بالظهور أمثال ديوي وسارتر وروسو وباستلوتزي، أي في حدود القرن الثامن عشر أي بفارق خمسة قرون على الأقل بين النموذجين؛ مما يؤكد ريادة وسبق الفكر التربوي الإسلامي عن نظيره الغربي.

– من ناحية الحدود المكانية:

الفكر التربوي الإسلامي نشأ في مجتمعات شرقية تختلف ظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية عن الفكر الغربي الذي نشأ وسط مجتمعات غربية تعاني من الصراع بين الكنيسة والنخبة السياسية الحاكمة.

– معنى التربية:

– إذا حاولنا الوصول إلى تحديد معنى التربية عند كل من جون ديوي وابن القيم؛ فإننا نجد كل منهما يؤمن بهذا النمو بمفهومه الخاص، فلو استرسلنا في الحديث عن التربية ومعناها عند ابن القيم لوجدناه يحدد مفهومها كالتالي: (وهى تعنى الإشراف على أمر الطفل، وحسن القيام عليه وتعهده ورعايته بالغذاء وتوجيهه حتى يفارق الطفولة، كما تعنى تعهد الناس وتوجيههم، والتدرج معهم فى التعليم والإشراف على أمورهم، وكذلك الاهتمام بالعلم وملاحظة شأنه وتنميته حتى يصل الإنسان فيه إلى شيء من الكمال الذى يستطيع به تعليم الناس والتدرج بهم من صغاره لكباره) بما يعني ضرورة تهيئة البيئة الصالحة بمفهومها الشامل المعنوي والمادي والطبيعي وذلك بقصد الوصول إلى النمو الطبيعي الذي يحتاجه كل فرد.

– ومن هذا التعريف نجد أن جون ديوي يشاطره الرأي في هذا التعريف فيعرف التربية

بأنها (... هي مساعدة الإنسان الصغير النامي العاجز لكي يصبح إنسانًا سعيدًا وذا أخلاق وقادر وفاعل وكفؤ)

ولقد اتفق هؤلاء العلماء على أهمية تربية النشء ورعاية الصغار وأهمية الوالدين في التربية فمثلًا ابن القيم كتب في مجال تربية الطفل ومن خلال كتاباته بين لنا طريقة تربية الأولاد ودور المعلم والآباء في تكوين شخصية الطفل ، كما نجد ديوي ونظريته البرجماتية ومنه النشاط الذي يساهم في تحديد أهمية المدرس والمدرسة بالنسبة للتلاميذ.

– واتفقا على أهمية النشاط وذم الكسل للمتعلم كمات أنهم طالبوا بأهمية الشفقة واللين والرحمة في التربية للمتعلم ومن هذا القبيل تُعد هذه النقطة حساسة لاعتبار التربية بالقوة لن تربي بل تحسب استبداد وفرض وهيمنة علمية او سلوكية ونحن نشاطرهم الرأي في أن الصغار لابد لهم من معاملة طيبة وهنا نجد مقولة عمر ابن الخطاب –رضي الله عنه– في تربية الصغار(علمه سبعًا واضربه سبعًا وصاحبه سبعًا) نلاحظ أنه في المرحلة الأولى من حياة الطفل تكون التربية بالرحمة والشفقة ثم بالتدرج بالضرب أثناء العصيان وتنتهي هذه المرحلة ببلوغ الطفل سن الرشد أو بالأحرى المراهقة حين لا يقبل العنف والسيطرة والتوجيه وهنا تكون المصاحبة.

– كما نجد أن الفكر التربوي الإسلامي انطلق من بيئة إسلامية أساسها كتاب الله وسنة نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم. وبالمقابل نجد الفكر التربوي الغربي تأثر بالمجتمع الأوربي وسيطرة الكنيسة.

ومن أوجه الخلاف التربية الدينية التي اعتبرها ابن القيم أساسية ومهمة للمتعلم في حين قوبلت بالرفض من ديوي.

– سنحاول في النقاط الآتية إبراز بعض الآراء التي نبغ فيها المفكرون المسلمون ومن بينهم ابن القيم ، مع ذكر النقائص أو بعض الثغرات الفكرية التي بقيت دون شرح مفصل أو غموض في الفكر.

الفكر التربوي الإسلامي (ويمثله ابن القيم):

– ينطلق الفكر التربوي الإسلامي من مصادر إسلامية تمثلت في القرآن والسنة.

– كما اهتم المفكرون الإسلاميون بتصنيف العلوم من حيث القيمة والفائدة مقدمين العلوم الدينية على الدنيوية في ضرورياتها وأهميتها للمتعلم كما نادوا بضرورة التدرج في التعليم.

– اهتموا بالمعلم وخصوه بوظائف عديدة ونادوا بآدابه وكرموه عن الجاهل.

– اهتموا بالعقل وجعلوه مصدر للبحث عن الحقيقة لدى المتعلم.

– اهتموا بالتربية الدينية والأخلاقية في كل مراحل عمره.

– اظهروا الروابط بين المعلم والمتعلم كالشفقة والرحمة واللين،.. إلخ.

– تناولوا آداب الطعام واللباس من منطلق القيم الإسلامية.

– وجعلوا الهدف من التربية والتعليم السعي لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة لذلك كانوا أكثر واقعية وموضوعية في أفكارهم التربوية.

– اهتموا بتعليم المرأة وأعطوه مكانة اجتماعية من منطلق ديني.

الفكر التربوي الغربي (ويمثله جون ديوي):

– تميز الفكر الغربي بالثورية على الفساد في المجتمعات الأوربية والغربية حيث يعتبر ديوي التربية وسيلة الإصلاح الأولى.

– وضع الغرب مناهج للتربية، وهذا ما زاد في قيمتها مثل منهج النشاط لديوي.

– شجع الفكر الغربي على تعلم المهارات، وشبهها بهواية التكدس وقت الضيق.

– شجعوا على تعلم المهارات اليدوية للأطفال ؛ بهدف تنمية ذكاءهم وغرس مبدأ الاعتماد على النفس، وهذا الذي كان عليه ديوي في صغره نشء على الكسب الحر.

– الاهتمام بالنظريات التي تضع الأساليب ومحاور البناء الاجتماعي . ونستطيع أن نتلمس ذلك في الفلسفة البرجماتية حيث يرى ديوي واتفق معه روسو على أن طبيعة الطفل

فلا بد من المحافظة عليها بحرية كاملة وأن مصدر الشرور هو الإنسان والمجتمع كما اهتم بالحواس وأهميتها في التربية والعاطفة والإحساس في تربية المتعلم.

نقد الآراء والأفكار التربوية لجون ديوي:

– أن النفع المادي العاجل هو الوحيد المسيطر على اتجاه فلسفة هذا المذهب، أي أن فكرة عمل أو عمل البراجماتيين إنما يقاس صلاحه وفساده وخيره وشره بما يحققه من نفع مادي عاجل، وسيطرة مثل هذه النزعة على سلوك الناس في الحياة يحولهم إلى ذئاب بشرية ذوي أظفار وأنياب ، لا يتعاملون إلا بالمادة ولا يتواصلون إلا حيث يكون نفع، ويوم أن تكون المنفعة هي الغاية لكل حركة وهدفًا لكل علاقة فما أشقى الحياة حينئذٍ؛ لأن تلك مرحلة تفقد فيها البشرية كل مقوماتها الكريمة وعناصرها الإنسانية، ويستوي فيها الإنسان بالآلات، وتغيب جميع مبادئ البر والعطف والرحمة والمواساة وسائر الأمور المعنوية، التي تهذب الحياة وترطب جفافها، ويخلو كيان الإنسان من العواطف والمشاعر الإنسانية من الحب والود والعاطفة.

– اهتم بالفلسفات الطبيعية والنفعية إذ كانت تعتمد على أفكار خيالية بعيدة عن الواقع في تحقيق معنى التربية.

– إنكار الأديان، وجحد الألوهية، فقيمة الفكرة فيما تولده من منافع ظاهرة في الحياة المادية، ولما كانت الفكرة في نظر هؤلاء قد يأتي عليها حين لا تؤدي وظيفة ظاهرة في الحياة المادية، فعندئذٍ تنبذ الفكرة أساسها لأنها لا تدير آلة ولا تحرك جهازًا. فهي إذًا تقوم على إنكار الأديان، وأن التدين حاجة إنسانية في فترات زمنية معينة ولظروف اجتماعية واقتصادية خاصة.

– إهمال الجانب الديني في تحقيق مبادئ التربية باعتبار أن هذا الأخير لا ينفصل عن ضروريات الضبط الاجتماعي.

– إهمال التربية العقلية والاعتماد على الحواس في التربية والاعتماد على منطلقات فلسفية.

– إهمال الجانب الروحي حتى الدين والمعتقدات والانسلاخ عن القيم والاهتمام بالجانب النفعي المادي وهذا مستحيل أن تخرج التربية عن المعايير الاجتماعية ومجال القيم.

– الأهداف التربوية:

نجد أن الهدف التربوي للفكر التربوي عند ابن القيم يتجلى بوضوح في خلق الإنسان الفاضل الناشئ على الأخلاق الإسلامية، وأن الهدف من التربية عند ابن القيم هو تكوين المؤمن الفاضل الذي يستطيع أن يتغلب على بدنه ومعوقاته.

هذا وأن دل ذلك على شيء؛ فإنما يدل على أن الفكر التربوي الإسلامي يقوم على تنشئة الفرد الصالح المتشبع بالأخلاق الإسلامية.

أما عن رأي جون ديوي ، فمعنى الهدف التربوي عنده يقوم على أساس الاستبصار أو الديناميكية والفاعلية في العمل. حيث عرف العمل على أنه(... العمل يعني ضرب من ضروب الشغل).

ونستخلص من ذلك أن ابن القيم لم يتطرق إلى العمل من وجهة المنفعة أو العمل في حد ذاته وإنما من أجل التقرب إلى الله سبحانه وتعالى في حين جون ديوي أكد على المنفعة الشخصية.

– من حيث المنهج:

المنهج هو الطريق المعبد الموصل إلى الغاية المنشودة وإن كان في هذا خلاف بين المفكرين عبر تعاقب الزمن وتطور الفكر التربوي وتشعب العلوم وتعقدها ومع هذا تبقى التربية ومناهجها هي الميزان الأول الذي نقيس به تقدم الأفراد وتطور الأمم والشعوب.

وقد اعتبر ابن القيم أن المنهج الإسلامي هو الجوهر الذي لا يمكن الحياد عنه وهذا الجوهر يحمل في طياته قوة الاعتراف بالله والخضوع له وهذا ما جعل التربية في الإسلام تتطبع بطبائع وشرائع الإسلام وقيمه، ويتسم المنهج الإسلامي بعدة خصائص منها:

- الثبات والديمومة وأنه مستنبط من الشرع.
- صالح لكل زمان ومكان.

بينما نجد أن فكر جون ديوي يركز على تعدد المناهج في الدراسات الفكرية، وهو

صاحب منهج النشاط وأنه قد اعتمد على عدة نقاط في إرساء المنهج ومنها:

– الخبرة، حيث يرى جون ديوي أن الخبرة هي الحياة والحياة هي الخبرة ،وهما رد فعل مستمر للمحيط.

– المنفعة: أي أن أهمية الشيء حسب القيمة التي يقدمها.

– الديمقراطية: وهي حق التعبير بكل حرية عن الأفكار والمعتقدات.

– الطرق التربوية والتعليمية:

– نجد ان الفكر التربوي عند ابن القيم يضع أمام الفرد طرق تعليمية وتربوية تترجم الممارسات الحياتية والتي تتمثل في قواعد عامة يطبقها الفرد للوصول إلى الكمال الإنساني ونقاء الروح.

– الخضوع العام والكلي لشخصية المعلم والإيمان الشامل بكل ما يقدمه من معارف وما يقوم به من أعمال. والسبب في ذلك يعود في رأي ابن القيم إلى الدراية الشاملة للمعلم عن المعارف والعلوم، ونجد أن جون ديوي يوافقه في ذلك الرأي وفي تجربة المربي وخبرته وأهمية الاتباع والتقليد له وذلك لقصور المتربي وعدم نضجه.

– التدرج في التعليم وعدم إرهاق فكر المتعلم.

– الترتيب المنطقي للعلوم بين جوانب وطرق التعلم.

– ضرورة مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين.

– في حين أن جون ديوي انطلق من طبيعة الفرد المتعلم كون الانتباه الموجه يكون جزئي وموزع ومرهون يبقى مرهون بالمراقبة المستمرة.

– كما أنه ركز على الخبرة لأن التربية الصحيحة تأتي من الخبرة، حتى أنها قد أصبحت شرطا أساسيًا من شروط التوظيف في وقتنا الحالي.

– كما ركز أيضًا على عامل البناء التصوري ، كون عملية التربية في حد ذاتها عملية

قائمة على التصور الإنساني للواقع المعاش (تصور الحقائق).

– كما يمكننا أن نرى أن ابن القيم قد ركز على الممارسات الفعلية للتعليم من قبل المعلم والخبرة إلى جانب التدرج في اكتساب العلوم والترتيب من العام إلى الخاص. في حين نرى أن فكر ديوي يركز على الفوارق الفردية والمنفعة الخاصة هذا وأن وجدنا بعض التفاهم بين ابن القيم وجون ديوي في نقطة الخبرة أي خبرة المعلم كونه المرشد الأساسي في العملية التربوية والتعليمية.

– ويقول ديوي: إن الطرق التعليمية خاضعة لتطور قوى الفرد وميوله، كما يرى أن القانون الذي يجب أن يتماشى مع المعلم هو طبيعة المعلم نفسه ويعاب على ديوي أنه أهمل الجانب الروحي والديني وامتثل لقوانين النفعية، وهذا ما يتنافى مع قواعد المجتمع الإسلامي، فالإنسان ليس جمادًا؛ بل هو يعي ما حوله ويميز بين الصحيح والمغلوط.

– تم مهاجمة آراء وأفكار جون ديوي الفلسفية والتربوية من قبل العديد من العلماء قائلين: (الفلسفة البرجماتية ليست فلسفة، وإنما هي هروب من الفلسفة)، وهنا يتضح أن جهود المفكرين المسلمين تنصب حول تفسير الواقع وفق تصورات مرهونة بمطابقتها للشرائع وقوانين الإسلام في حين أن الغرب لا يراعون في تصوراتهم المذاهب الدينية وهذا ما توحي به الصراعات بين الديانات المسيحية بين تشدد الكاثوليك وانفتاح البروتوستانت.

– وإن رجعنا إلى القيم والمثل الأخلاقية نجد أن ابن القيم قد ركز على الجانب الأخلاقي للعلم والمتعلم، واعتبر أن الأخلاق هي أساس الحياة، والقيمة الصالحة التي تساعد الفرد على تكوين علاقة فعالة مع مجتمعه ومن حوله، إلا أن جون ديوي يقول: إن النفعية أخلاق، وإن معيار القيم في تغير دائم ومستمر، وعليه نجد أن هذه الأفكار الغربية تتنافى مع الواقع في المجتمعات النامية والعربية خاصة؛ فالأخلاق هي العمود الأساسي في العملية التربوية، كما نجد أن الفلاسفة القدماء على غرار أرسطو و"كانط" يركزون على أهمية الجانب الأخلاقي في التربية.

المحور الخامس: النتائج والتوصيات

– أهم نتائج البحث:

١. القرآن الكريم هو كتاب توجيه وتربية، كما هو كتاب عقيدة وعبادة في الأصل، والقرآن الكريم كشف عن حقيقة الإنسان والغاية المرجوة من وجوده والمصير الذي ينتهي إليه، وتكفل بتربيته على أسس قوية مما يجعله أعظم مصدر للتربية.

٢. التربية أداة فاعلة في التأثير ايجابيًا في سلوك الأفراد والجماعات، ويلاحظ أن ما تتصف به المجتمعات من تقدم وتخلف يعود في أساسه إلى نظامها التربوي.

٣. إن المبادئ والأفكار التربوية لأعلام التربية الإسلامية تتصف بالتكامل والشمول والتوازن والثبات وعدم التناقض بين مفرداتها، وهذا عائد إلى مصدرها الإلهي، بخلاف الفلسفات الفكرية التي تناقضت واختلفت في مبادئها وتطبيقاتها بسبب اختلاف الفكر لدى واضعيها.

٤. على الرغم من أن الأفكار والآراء التربوية التي قدمها ابن القيم كممثل لمدرسة الفكر التربوي الإسلامي سبقت الآراء والأفكار التربوية لجون ديوي كممثل لمدرسة الفكر الغربي بعدة قرون، إلا أنه تعدُ الأفكار والمنطلقات التي انطلق منها أكثر واقعية وموضوعية؛ حيث نجد أن ديوي قد ركز على الكسب الحر النفعي الأناني الخاص بالفرد دون المجتمع، وكانت أفكاره خيالية بعيدة عن الواقع ولا تستند إلى دليل أو حجة، وذلك عكس الآراء والأفكار التربوية لابن القيم المستنبطة من الكتاب والسنة النبوية المطهرة، حتى أننا نجد أن نظريات الغرب الفلسفية في التربية والطبيعة قد فشلت في تربية الغرب نفسه وليس كقاعدة عامة للمجتمعات الإنسانية ، بينما ظلت أفكار ابن القيم وغيره من علماء الفكر الإسلامي والموجودة في مؤلفاتهم المتعددة والمتنوعة ما زالت إلي اليوم مصادر مهمة للعمل في شؤون الحياة اليومية العلمية والعملية، حتى أن بعضها كالمقدمة لابن خلدون ترجمت وأصبحت تدرس في الجامعات الغربية.

٥. هذا لا ينفي انجازات بعض المفكرين الغربيين في المجال التربوي والفكري فهناك عدة أعمال قيمة مثل أعمال "دوركايم" الذي طوع الدراسات الإنسانية للتجربة (اعتبار الظواهر الاجتماعية كأشياء) و (قواعد المنهج)، ومن أبرزهم جون ديوي ومؤلفه (المدرسة والمجتمع).

٦. غير أننا ومن خلال الدراسة والاطلاع على آراء وأفكار كل من ابن القيم وجون ديوي؛ اتضح لنا أن التربية الإسلامية تهتم بالعقل والتربية الغربية تهتم بالحواس ، وأن الفكر الغربي أفاد بفلسفات التربية لكنه لم يطوعه للدين عكس الفكر التربوي الإسلامي الذي استطاع أن يطوع الفلسفة له، ولخدمة الدين الإسلامي.

– توصيات البحث:

بناء على النتائج التي تم التوصل إليها، يوصي البحث بما يلي:

توصيات عامة:

١. التوصية بعقد وإجراء المزيد من البحوث والدراسات المقارنة بين ممثلين آخرين من أعلام الفكر التربوي الإسلامي و غيرهم من أعلام الفكر التربوي الغربي؛ وذلك للكشف أكثر عن الفروق في التربية بين التربية الإسلامية والمدارس الفلسفية المختلفة وكذلك للتأكيد على سبق وريادة الأفكار والآراء التربوية للعلماء والمربين الإسلاميين، وصلاحيتها لكل زمان ومكان؛ نظرًا لأنها مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة.

٢. ضرورة التمسك بالأفكار والمبادئ التربوية الإسلامية فهذا يساهم في حل جميع مشاكلنا التربوية سواء على المستوى الفردي أو الجماعي.

توصيات تتعلق بأوجه الإفادة من الآراء والأفكار التربوية لكل من ابن القيم وجون ديوي في حل مشكلات الواقع التعليمي والتربوي المعاصر:

١. يجب أن يساعد المنهج الدراسي على تحقيق الذات، وتحقيق النمو الشامل والكامل للطفل.

٢. يجب أن يقوم المنهج الدراسي على مبدأ النشاط الذاتي للمتعلم.

٣. يجب أن يكون أحد أهم أهداف التربية هو تعليم الطالب كيف يفكر؟ لا بماذا يفكر؟.

٤. ضرورة أن تدفع المناهج الدراسية في اتجاه اكتساب التلاميذ المهارات والخبرات الواقعية والعملية التي يحتاجونها لكي يكونوا مواطنين وأفراد ناشطين مكتشفين وعاملين.

٥. يجب أن تبتعد المناهج الدراسية عن فكرة حشو أذهان الأطفال بالمعلومات الكثيرة عن التراث الاجتماعي والثقافي، بل يجب أن تحاول التوفيق بين حاجات الأطفال وبين الخبرات التي تساعدهم على فهم مشكلات الحياة.

٦. يجب أن تدفع المناهج الدراسية إلى تأكيد نشاطات الطلاب، وضرورة تحويلها إلى خبرات تمكن الطالب من الابتكار، والقدرة على حل المشكلات المستجدة.

٧. ضرورة الاهتمام بالعلوم المهنية والعلوم الطبيعية.

٨. ضرورة أن يراعي المنهج الدراسي رغبات المتعلمين وحاجاتهم وميولهم.

٩. يجب الابتعاد عن فرض الآراء على المتعلمين؛ لأن ذلك يؤدي إلى حالات من التعقيد والاضطرابات النفسية والإخلال بالصحة العقلية.

١٠. ضرورة أن تحرص المناهج الدراسية على حسن استثمار نشاط الطلاب وحيويتهم في التعلم، وتنمية القدرات الجسمية بممارسة الرياضات المفيدة.

١١. ضرورة النظر إلى المتعلم على انه شخص له هدف روحي ينبغي تحقيقه ، وضرورة تعليمه احترام الآخرين والقيم الروحية وكذلك تعليمه احترام المجتمع الذي ولد فيه.

١٢. ضرورة الاهتمام بالمعلم؛ لأنه القدوة التي يقتدي به التلاميذ فضلًا عن أنه يولد المعاني والأفكار في عقولهم. وأن يتم إعداده إعدادًا علميًا وسلوكيًا متميزًا، وقادرًا على نقل المعرفة للمتعلمين.

١٣. ضرورة إشراك أولياء الأمور في النواحي التربوية المتعلقة بتعليم أبنائهم.

١٤. ضرورة أن تعمل التربية على تنمية قيم الحق والخير والجمال لدى المتعلمين.

١٥. ضرورة أن تعمل التربية على تنمية النواحي الفكرية والحسية لدى المتعلم.

١٦. ضرورة تفعيل مبدأ المشاركة والتعاون بين كل من الأسرة والمدرسة والمجتمع المحلي في تحسين جودة ؛ بما يعود بالنفع والفائدة على كل منهم.

قائمة المصادر والمراجع

- إبراهيم عصمت مطاوع: أصول التربية (القاهرة: المكتب المصري الحديث، ١٩٨٨).

- ابن القيم، مدارك السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين) دار التراث العربي) بيروت) لبنان) بدون تارخ.

- ابن القيم، تهذيب سنن أبي داود، تحقيق أحمد محمد شاكر، ومحمد حامد الفقي سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، دار المعرفة، بيروت لبنان.

- ابن قيم ، الصواعق المرسلة على المجهمية والمعطلة، دار العاصمة، الرياض، ط/١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، تحقيق د. علي بن محمد الدخيل الله.

- ابن قيم، مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، بيروت.

- أحمد إسماعيل حجي: المدخل إلى التربية والعلوم التربوية (القاهرة: النهضة المصرية، ١٩٩٢)

- الديلمي، مسند الفردوس من كنوز الحقائق، المناوي ، ط٤ سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤هـ، مكتبة ومطبعة/ مصطفى البابي الحلبي بمصر.

- محمد صفوح الأخرس: المنهج وطرائق البحث العلمي في علم الاجتماع (دمشق: المطبعة الجديدة، ١٩٨٤).

- جون ديوي: الديمقراطية والتربية ، ترجمة نظمي لوقا (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨).

- جميل صليب: المعجم الفلسفي (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ج٢، ١٩٨٢).

- إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الفلسفي (القاهرة: مجمع اللغة العربية، ط٢ ، ب.ت).

- نخبة من الباحثين السوفيات: الموسوعة الفلسفية-ترجمة سمير كرم (بيروت: دار الطليعة ، ط٦ ، ١٩٨٧).

- محمد منير مرسي: تاريخ التربية بين الشرق والغرب (القاهرة: عالم الكتب ، د.ت).

[٩] - John Dewey," Can Education SHARE in Social Reconstruction", the Social Frontier, Vol. 1 No.1, October, 1934.